خواطر في الإسلام

بقلم

عطا حسني بك

عضو في الجمعيتين الحامية الجغرافية في باريس

الجزء الثاني

طبعة ثانية





الحمد لله الذي سطعت أنواره القدسية في قرآنه الشريف ، فلاشت المعتقدات الكفرية ، وأذهبت عن عباده كلّ حيف ، والصلاة والسلام على نبيه العربيّ الاميّ الذي جاء بكلمة الحق فلاشت الاباطيل ، وأجلت عن عقول البشر الاضاليل ، فلألأت بها المدنية الحقة بمحكم التنزيل .

وبعد فقد كان للجزء الاول من كتابنا هذا : «خواطر في الاسلام» أجمل وقع في نفوس مطالعيه ، لما حواه من الحقائق التاريخية الراهنة ، والحجج الفلسفية الدامغة ، بحيث لو تمعن المطالع في سطوره ، بدت له العصور الغابرة وما كانت عليه من الضلال في اعتقاداتها ، والتقهقر في مدنيتها وحضارتها ، وقد أجملنا القول هناك عن نشاة الانسان الاول ، وكيف تمدن وتحضر ، ثمّ ملنا الى اليهودية وهي أقدم الامم التي عرفت الله ودانت له سبحانه ، فذكرنا ما كان لها في عالم المدنية من التاثير المحدود ، ثمّ أشرنا الى النصرانية فأبنا كيف كانت في نشاتها الاولى ، منزوية في المنر والكهوف ، فما أثرت أقل تاثير على المدنية الرومانية ، كما لم تدخل في مضمار العلم والفلسفة

والاجتماع ، ثمّ سرنا مع نصارى الشرق فيما مرّ عليهم في قديم تاريخهم ، فاشرنا الى قسطنطين الملك وكيف لعب بالمسيحية ذلك الدور المخجل ، يحوّل الاعتقاد بسيدنا عيسى عليه السلام ، من النبوة الى الالهوية ، واشركه مع الاله الاوحد ، الذي لم يلد ولم يولد ، وتعالى الله عما يقولون. ثم ذكرنا اجمالا ما كان من هذا الملك وخلفائه في الشرق من الاضطهادات التي ساقها على المسيحيين ، الذين لم يرضوا بالاشتراك ، ولم ينضموا الى فاسد ما يعتقدون بحيث كانت المملكة البيزنطية ، وهي حاكمة الشرق، تقتل وتسجن المسيحيين، وتصادر املاكهم ومقتنياتهم لمجرد مخالفتهم لها فيما تعتقد

اما معاملة ملوك بيزنطية لليهود فكانت على أسوأ ماتتصوره العقول وناهيك بقوم هذا حالهم مع بعضهم وهم أهل دين واحد كيف يكون حالهم مع قوم ينسبون لهم قتل نبيهم بل الههم « والعياذ بالله » ؟؟ حتى ان اليهود في ذلك العصر كانوا من ذلّ الاضطهاد والعبودية في أدنى دركات الشقاء .

أما معاملة المسيحيين للوثنيين فحدث عنها ولا حرج وناهيك فانهم قاموا يثأرون لانفسهم منهم بعد ان لاقوا ما لاقوا من ماضي الاضطهاد على ما هو معروف فكانوا يعذبونهم باشد أنواع العذابات ويسومونهم كل انواع الاضطهادات ويسفكون دماءهم هدراً وقد نسوا في موقفهم ذلك اوامر سيدنا عيسى عليه السلام القاضية عليهم بمحبة اعدائهم والاحسان لمن أساء اليهم على ما هو صريح في الانجيل الشريف

وبالاجمال لم يكن لهذه الدولة من همّ الا سفك الدماء الذكية ، واهلاك النفوس البرية ، اكراهاً للناس على الباطل وهم يحسبونه حقاً وكان دأب

المسيحيين اذ ذاك المشاحنات الدينية والمجادلات المذهبيه ، وقد اجمعت فرقهم على حرق الكتب العلميه والفلسفيه ، والانصراف الى المذاكرات والمباحث الاعتقاديه ، فتلاشت بذلك خزائن العلوم القديمه ، الا ما خفي عن الابصار ، ولم يهتد اليه القسيسون في تلك الديار ، وعلى هذا ظهر جلياً للعيان ، أن المسيحية في اطراف المشرق كانت آفة المدنية والعمران ، والفلسفة والاداب والعرفان ، كما كانت سبباً للشرور والاحن على بني الانسان ، في مشاحناتها الدينية ، واختلافاتها المذهبية ، في هذا الذي يعتقدونه باله وانسان.

وبعد أن بينا حالة النصرانية السيئة في القرون الرابع والخامس والسادس المسيحية في الشرق وصلنا الى ظهور نبينا عليه الصلاة والسلام ، وبينا بالبرهان الاشهب ، أن الله سبحانه وتعالى قد افتقد برحمته العالم برسالته صلوات الله عليه ، لتعميم كلمة التوحيد ، بعد أن عمّ الاشراك ، وللمدنية والعلم ، بعد أن سادت الهمجية ، وعمّ الجهل.

ثمّ ساقنا الحديث الى ذكر الفتوحات النبويه فعهد الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم الى أن وصلنا الى خلافة الامام علي كرم الله وجهه وكيف انتقلت الخلافة على عهده الى معاوية ابن ابي سفيان فتحولت اذ ذاك الخلافه المحمدية العظمى الى ملك عضوض

اما هـذا الجزء فهو يقسم الى فصول بينا فيها حالة النصرانية في الاجيال الثلاثة الاولى في أوروبا فحالة النصرانية هناك في الاجيال الثلاثة الثانية وهي القرون الرابع والخامس والسادس المسيحية فحالة النصرانية في القرون الوسطى التي يسميها التاريخ بالقرون المظلمة وما كان هناك من القسوة والهمجية ، وكيف عامل المسلمون النصارى في الاندلس ، وكيف عامل

النصارى المسلمين في تلك البلاد ، عند ما اتحدت النصرانية على الاسلام بشكل تعصب مخيف . ثمّ تطرأنا الى ديوان التفتيش وما كان هناك من الهمجية التي تقشعر منها أبدان البشر. ثمّ الحروب الصليبية وما كان لها من التأثير السيّئ على المسلمين . ثمّ ذكرنا ظهور البروتستانية وكيف قامت في وجوه الباباوات والكردينالية بعد ان رويت الارض من دمائهم وكان في ظهور هذه الفيئة بدء عهد الاصلاح الاوروبي

ثمّ بينا بعد ذلك بالبرهان الاشهب ان البروتسطانية نفسها لم تفد المسيحيين كل الفائدة بل ان مسيحيي اوروبا لم يصلوا الى هذا التقدم المدهش الا بفضل الثورة الفرنساوية التي قامت على مبدأ الكفر وعلى اكتاف الكفرة وقام بها مبدأ « ترك التدين » وبهذا توصلنا الى النتيجة التي وضعنا لها هذا الكتاب وهي « ان المسلمين لما كانوا متمسكين بقواعد دينهم الحنيف سادوا الامم ودوخوا الممالك ونشروا أنوار المعارف والمدنية في الارض وانهم ما فقدوا مجدهم وملكهم ومدنيتهم وآدابهم الا عند ما ابتعدوا عن حقائق الدين، ومالوا الى وساوس المتهوسين، وان النصارى عند ما كانوا خاضعين لباباواتهم وقسيسيهم على أسلوب دينهم ،الذي اختاره لهم، كانوا في أدنى دركات الهمجية والتوحش ، وانهم عندما مالوا الى الكفر، واستسلموا الى الكفرة ، تقدموا وارتقوا وتعلموا وعلموا وتمدنوا واعتلوا أعلى درجات الحضارة على ما هو مشاهد عندهم الآن

ومن هذا يتضح جلياً لكل ذي بصيرة نقادة ، ان الاسلام هو دين الفطرة والمدنية ؛ وان النصرانية لا تصلح للمدنية ، ولا هي ملائمة للفطرة البشرية، وانها ما أفادت في الماضي ولم تكن لتفيد في المستقبل لو دامت» وكفى بهذا رداً على الطاعنين عن جهل وتعصب على الاسلام والسلام

الفصل الاول

الرومانيون وظهور النصرانية

عند ماظهرسيدنا عيسى عليه السلام في أورشليم بيت المقدس سنة ٤٠٠٥ للخليقة كانت رومية عاصمة الدنيا وكان الملوك الرومانيون مسلطين على أكثر العالم المعروف في الشرق والغرب

وكانت المدنية الرومانية ساطعة الانوار في عاصمة العالم رومية العظمى كما كانت الفلسفة اليونانية قد انتقلت اليها ونمت فيها وظهر هنالك الفلاسفة العظام والمتشرعون الكبار وأرباب العقول الراجحة والافكار الساميه

وكان الرومانيون على الوثنية، يعبدون الانصاب والاصنام، ولا يعرفون سواها ، وقد وزعوا خصائص الله سبحانه على أصنامهم فجعلوا آلهة للحكمة والعلم والحرب والبحر والجمال والشجاعة والجحيم والنعيم الخ الخ

وكانت اكثر الشعوب على اختلافها تدين لهم وتخضع لسلطانهم في الشرق والغرب ويحكمها افراد منهم بالقسوة والقهر على ماكان الحال في حكام واحكام ذلك الزمان

وكان الرومانيون متعبين جداً في حكمهم بيت المقدس لتعصب اليهود الذين كانوا يرون ان الخضوع للاجنبي عنهم جنساً وديناً مما يخالف قواعد دينهم ولذلك كانوا كثيراً مايقاومونهم ويشددون النكيرعليهم فتسفك الدماء ويتهدم العمران.

في هذه الاونة ظهر سيدنا عيسى عليه السلام مرسلا عن عند الله لهداية اليهود خاصة والبشر عامة ويظهر مما اتصل بنا من الاناجيل التي

بين ايدي النصارى اليوم أن سيدنا عيسي عليه السلام وجد حاخامي اليهود وشيوخهم على ضلال وابتعاد عن جوهر الدين القيم فأخذ يوبخهم ويدعوهم الى اصلاح ما أختلّ من احوالهم وفسد من اعتقاداتهم وقضى مدة الثلاث سنوات التي بعث فيها لهم واعظاً ومرشداً وليس مشترعا ولا مقننا بدليل قوله عليه السلام « لم آتي لا نقض الناموس بل لا كمله »

وقد افصح سيدنا عيسى عليه السلام على ما في اناجيل النصارى التي بين ايديهم الآن أنه لم يأت بشريعة بل أن شريعته هي شريعة سيدنا موسى عينها غير انه لمـا راى اليهود مغالين في فهم بعض بنود الشريعة علي حرفيتها مبتعدين عن الرحمة والمحبة لبعضهم بعضاً ولغيرهم من الشعوب جعل ديدنه ايصاءهم بالمحبة والرحمة وهما الفضيلتان اللتان جعل سيدنا عيسى عليه السلام محور تعاليمه ومواعظه عليهما وكانتا مفقودتين تماما من اليهودية

فشريعة النصارى على ما هو مفهوم من الاناجيل التي بايدي النصارى انفسهم هي نفس شريعة سيدنا موسى بغير زيادة ولا نقصان لو لم يدخل قسيسو النصارى عليها بعض الدسائس لاغراض في نفوسهم كابدال الاحد بالسبت وتوحيد الزوجة ومنع الطلاق على مالا ينطبق على الفطرة البشرية ولا على الشرائع الالهية والغير الهية

اما ابدال الاحد بالسبت في تعطيل الاشغال فما لا نتصدى اليه لانه ليس من الامور الجوهرية للعمران وما اشرنا اليه هنا الا برهاناً على ان المسيحيين لم يحترموا شريعة سيدنا موسى عليـه السلام وهي شريعتهم الملزمون باتباعها حتى فيما هو صريح النص في الوصايا الالهية كما خالفوا هذه الوصايا بما يتعلق بالصور والتماثيل حيث نرى في الوصايا العشر التي كتبها

الله سبحانه وتعالى باصبعه وسلمها لسيدنا موسى في الوصية الثانية على ما في التوراة قوله «لا تصنع لك صنما ولا تمثالا لاما هو في السماء فوق ولا مما هو في الارض اسفل لا تسجد لهنّ ولا تعبدهنّ» ومع ذلك فكنائس المسيحيين» الاثيروتسطان» بعضها مملوء بالاصنام والصور وبعضها مملوء بالصور دون التماثيل فتأمل

واما مسألة توحيد الزوجة ومنع الطلاق التى لا يشك عاقل بانها ادخلت على تعاليم سيدنا عيسى عليه السلام فهي منافية للفطرة البشرية وما كان الله ليأمر رسله أن يشترعوا ما لا ينطبق على فطرة البشر وهو خالقهم وموصيهم أن يتزوجوا وينموا ويملأوا الارض على ما في التوراة فضلا عن مخالفتها جميع الشرائع الالهية والغير الهية ولو اننا نتوخى المباحث الدينية في هذا الكتاب لكنا وفينا الموضوع حقه واطلنا البحث في هذه النقطة التي يتخذها المسيحيون حجة يتسلحون بها ضد الاسلام فيقولون « ان المسلمين لا يمكن أن يتقدموا ويرتقوا في عالم المدنية طالما يتزوجون اكثر من واحدة ويكثرون من الطلاق » مع اننا نرى العالم المتمدن قد انغمس في حمأة الرذائل وقلّ منهم من لا يصطحب خليلة أو اكثر مع زوجته الشرعية بدليل ما نقرأ من احصاآت اللقطاء في اوروبا وقد سنوا لانفسهم اخيراً شريعة الطلاق بعد أن راوا في عائلاتهم من الشقاق ما لا يطاق

وعلى سبيل الاستطراد يمكننا أن نذكر هنا بعض كلمات في هذا الموضوع فنقول أن المسيحيين الاوربيين الذين جعلوا يحترمون النساء الى شبه العبادة على ما هو منظور من احوالهم الاجتماعية ويحسبون هذا الاحترام من قواعد مدنيتهم ويرمون المسلمين بالهمجية لانهم لا يقومون بمثلها من

الحرمة لنسائهم بل يعتقدون بالعكس أن الاسلام لهمجيته وضع مبدأ تعدد الزوجات واباح الطلاق

أما مسألة احترام النساء فالاسلام لم يقصر في حرمتهنّ حيث اباح لهنّ التصرف باموالهنّ بل ازاد في احترامهنّ باباحة الطلاق بحيث لا تكون المرأة ملزمة أن تقضي عمرها بطوله مع من لا ترى سبيلا لحسن معاشرته واباح لها أيضاً أن تقترن بسواه عند تركه بالطلاق حباً بسعادتها الى غير ذلك من الاباحات الشرعية الجوهرية التي تعود عليها بالحرمة والراحة والسعادة

أما مسألة تعدد الزوجات فلم يبتدعها الاسلام بل اقتفى بها آثار اليهودية حيث كان سيدنا ابرهيم عليه السلام ذا زوجتين على ما هو معلوم وسيدنا يعقوب عليه السلام ذا زوجتين وسراري على ماهو مشهور وسيدنا داود عليه السلام ذا عدة زوجات وسيدنا سليمان عليه السلام ذا زوجات لاعداد لهنّ وكل ذلك صريح في التوراة والناظر الى شريعة سيدنا موسى لا يرى فيها نصاً يمنع تعدد الزوجات اصالة وما ميزة ديننا الحنيف الا انه وضع حداً لهذا التعدد واشترط العدل في معاملة الزوجات

أما الحكمة في تعدد الزوجات فما لا يخفى الا على قصيري النظر ولا نريد أن نخوض في هذا المقام طبياً وطبيعياً من حيث قناعة المرأة دون الرجل ومن حيث العوارض التي تعرض للمراة فتجعلها غير صالحة للزوج ولا عمرانياً من وجهة نمو النسل لاننا نعتقد ان هذا من البديهيات في نظر الذين لم تعمهم الاغراض وحسبنا في كل ذلك ان نرجع بالقاريء الكريم الى الحالة الاجتماعية في أوروبا ونستلفت انظاره الى ما هنالك من المساوي والموبقات المتولدة عن وحدة الزوجة ومنع الطلاق بحيث امتنع الرجال عن الزواج الا عند سن الكهولة

تخلصاً من وحدة الزوجة وغطرستها والله يعلم والناس لا يجهلون أين يقضي أولئك الشبان العذاب أوقاتهم وما يكسبونه من فقر ومرض

اما مسألة الطلاق فهي بديهية وطبيعية وأباحها سيدنا موسى عليه السلام صراحة وليت شعري ما ذنب زوج يقضي عمره بصحبة زوجة لا يحبها وما ذنب زوجة تقضي عمرها بصحبة زوج لا تحبه أما في ذلك نوع من العبودية بل ماهو شرّ من حالة العبيد الذين حررتهم أوروبا اما في ذلك من الظلم ماتأباه النفوس وتنفر عنه الطباع ؟ ؟

وبالاجمال ان الموضوع كبير والبحث فيه طويل يستغرق المجلد الضخم وما أشرنا اليه الآن الا على سبيل الاستطراد

ولنعد الى مبحثنا الذي بدأنا به فنقول أن الرومانيين قد استفادوا نوعاً ما من ظهور سيدنا عيسى الذي حول الشعب اليهودي قليلاعن نصرة شيخوخه وحاخاميه بعد أن فضح مساويهم واظهر شرورهم وشدد عليهم النكير لما ارتكبوه من المساوي والآثام حتى أن علماء اليهود ومؤرخيهم يدعون « أن ظهور سيدنا عيسى عليه السلام هو الذي اضاع ملكهم الى الابد حيث فرق كلمة الشعب الاسرائيلي فتمكن منهم الرومانيون وضربوهم الضربة التي لم تقم لهم قائمة من بعدها »

وبعد أن انتهت مهمة سيدنا عيسى عليه السلام ورفع الى السماء عند ما اصرّ اليهود على صلبه وصلبوا من شبه لهم تفرق تلاميذه في العالم المتمدن فكانت وجهتهم انطاكية اولا والاسكندرية ثانياً وروما العظمى ثالثاً وهذه المدن الثلاث كانت اعظم عواصم العالم المتمدن وقتئذ ومنها تفرقوا فيما بعد الى جهات مختلفه من العالم المعمور

ومن يبحث في تاريخ المسيحيين حينئذ يجد انهم كانوا على حالة من البساطة التي يدعونها حتى اليوم « بالبساطة المسيحية » ومامعنى تلك البساطة التي ما زال المسيحيون يرددونها على افواههم الى هذه الايام في كل عصر ومصر ؟؟ » معناها أن المسيحيين حينئذ كانوالا يعتنون بشيء في العالم من علم وسياسة وتمدن الخ بل كان دأبهم كما هو معروف ومشهور عنهم الانزواء في مغرهم خوفا من اعتداء الوثنيين عليهم وطرح كل نخفخة عالمية والانصراف عن هذا العالم برغبة العالم الآتي وهو مبدأ على ما فيه من ظاهر الزهد لا انطباق له مع المدنية والحضارة اللتان تتطلبان العناية في المعيشة الارضية والاجتهاد في العمران

ونحن لا نجادل المسيحيين في هذا المبدأ من الوجهة الدينية لان كتابنا وجد للسياسة وليس للدين ولكن نجادلهم من الوجهة المدنية فنقول : أن انصراف المسيحيين عن العالم حسب اعتقادهم يجعل دينهم مخالفاً للمدنية بكل معنى المخالفة لان المدنية لا يمكن أن توجد الا بين قوم منصبين على العالم بجملتهم لانها من خصائص العالم كما نرى الاوربيين لهذا العهد.

وعندنا أن الرومانيين لم يضطهدوا المسيحية الا لتخوفهم منها وانهم كانوا يعتبرونها جمعية سرية وجدت للاشاة العمران كاعتقادنا اليوم بالفوضويين المنتشرين في اوروبا والعاثين بها فساداً هدماً لمعالم المدنية والحضارة

واكبر برهان لنا على أن المسيحيين كانوا في صدر المسيحية منصرفين عن العالم غير مبالين بالعلم والفلسفة والحضارة هو اقبال فقراء الناس عليهم وانصراف الاغنياء عنهم ويقول المؤرخون الكنسيون أن القليل من الغنيات والاغنياء الذين دخلوا وقتئذٍ في النصرانية كانوا يهبون اموالهم ومقتنياتهم

لصندوق الطائفة ويشاركون اخوانهم الفقراء في معيشتهم الاشتراكية الفقرية فاي مدنية واي رقي يرجى من قوم هذا اعتقادهم وهذا حالهم ؟؟

ومن نظر الى كتب انبياء بني اسرائيل عليهم الصلاة والسلام يرى في كثير منها الافصاح على أن كل ما في العالم من جماد ونبات وحيوان قد وجد لخدمة البشر وراحتهم كما أن الشعوب الوثنية الا بعض فرقها تتمتع «بغير أن تبتعد عن جوهر اديانها» بكل ما في هذا العالم ولم يخالف ذلك الا الانجيل الذي بين ايدي النصارى فانه يامر المسيحيين أن يتركوا العالم باسره بما فيه وأن يفرقوا اموالهم على الفقراء والمساكين وأن يلبسوا المسح ويعيشون المعيشة الزهدية حاملين صليبهم

وازادوا على ذلك ماجاء في رسالة بولس وهو رجل لم يعاشر سيدنا عيسى عليه السلام ولم يعرفه بل كان في نشأته عدواً للمسيحية وكان فيلسوفاً كبيراً ودخل النصرانية بعد انتقال سيدنا عيسى وأصبح في مقدمة خدامها فهذا الرجل كان عازباً وكان ينادي برسالته بملء فيه انه يريد ان يكون الناس كلهم مثله أي عزاباً غير مزوجين ومناداته هذه تخالف الفطرة البشرية والحيوانية والنباتيــة المنصرفة كلها الى نمو أجناسها وبقائها وتعارض ارادة الله جلّ شأنه وأوامره الالهية على ماجاء في التوراة حيث روى سيدنا موسى عليه السلام ان الله تعالى لما خلق آدم وحواء أمرهما ان يتزوجا ويتناسلا ويملأا الارض

وبالاخير ان تعاليم بولس هذا وهو ركن عظيم من أركان النصرانية وعليها يعول المسيحيون كثيراً ويعدونها بحكم الوحي تنافي المدنية والعمران لانهم لو تمكنوا من تحقيق أمنيته وامتنعوا عن الزواج منذ ألف وتسعمائة

عاماً لكانوا انقرضوامن الوجود بغير جدال

اما الرومانيون الذين ظهرت المسيحية بينهم في انطاكيةواسكندرية ورومية العظمى فقد تخوفوا منها وقاموا يضطهدونها بكل مافي وسعهم خوفاً على مدنيتهم فقتلوا من المسيحيين خلقاً كثيراً وكان سوادهم وهم لفيف الرعاع والفقراء عرضة للذل والسخرية والهوان مدة الثلاث أجيال المسيحية الاولى

الفصل الثاني

﴿ في الاجيال الثلاثة المسيحية التالية ﴾

ظهر من الفصل المتقدم ان النصرانية كانت متضعضعة في الاجيال الاولى الثلاث لاضطرار المسيحيين الى الاختفاء في مغرهم وخلواتهم خوفاً من اضطهادالملوك الوثنيين غير انهم لم يظلوا كذلك بعد ان تنصر قسطنطين الملك ولبيان هذا الحادث الخطير في النصرانية نقول .

كانت المملكة الرومانيـة في أواخر القرن الثالث العوبة بين كبار قواد الجيش الروماني فكان القوي منهم يتغلب على رفاقه فينادي به الجيش والاعيان ملكا وهكذا انتهت الامبراطورية الرومانيـة الى قائد كبير كان يدعى ديوكلتيان فاصبح أمبراطوراً وديوكلتيان هذا كان مولده في مدينة دلماسيا سنة ٢٤٥ مسيحية وهو ابن رق فدخل الجندية وسمي في أيام بروبس قائداً لجيش ميسيا ثم سمي قنصلا سنة ٢٨٣ مسيحية وسماه الامبراطور نمريان رئيس خدمة القصر سنة ٢٨٤ مسيحية ولما قتل نمريان قتل ديوكلتيان

قاتله ونادى بنفسه امبراطوراً في نيكوميديا فاعترضه كازان أخو نمريان الذي كان شريك أخيه في ملكه الواسع وقامت بينهما حروب هائلة فظفر أولاً بديوكلتيان ثمّ تحول النصر الى هذا في الموقعة الاخيرة بينهما التي حدثت في ميسيا وبعد هذه الموقعة ارفضّ عنه جيشه بين قتيل وجريح وهارب وتقدم منه أحد اتباعه وقتله

وبعد قتل كاران أصبح ديوكلتيان امبراطوراً شرعياً على المملكة الرومانية واستخدم مكسيميان هرقل سنة ٢٨٦ مسيحية في قيادة الجيش المحارب العليا فأخذ هذا على عهدته تأمين المخاوف وتسكين الاضطرابات

ثمّ رأى ديوكلتيان ان لاقبل له على ادارة المملكة الرومانية الشاسعة جداً والتي كانت الاضطرابات منبثة في ارجائها من كل صوب وحدب فراى من الحكمة ان يستمين على الحكم باربعة من كبار قواده فاستدعى سنة ٢٩٣ القائدين الكبيرين كالر وقسطنس وتبناهما وسماهما قيصرين وسمى نفسه ومكسيميان عاهلين وأبقى ديوكلتيان لنفسه تراسه واسيا ومصر وجعل مدينة نيكوميدية عاصمة له

وكان هؤلاء الملوك الاربعة مجمعون على اضطهاد النصرانية وتشديد النكير عليها في الشرق والغرب حتى استصدروا منشوراً باسم ديوكلتيان نفسه سنة ٣٠٣ نهابه المسيحيين عن الاجتماعات العامة وجعل الموت نصيب الذين يخالفون أمره منهم

ثمّ أن ديوكلتيان هذا ثقلت عليه وطأة الملك فاستقال سنة ٣٠٥ تاركا المملكة الى مكسيميان هرقل وقسطنس كلور وكالر وسمى القائد ساويروس فلافيوس قيصراً وبعد عام سماه كالر عاهلا وكان نصيب هذا الاخير ولاية

ايتاليا وافريقيا

وسنة ٣٠٦ توفي قسطنس كلور وكان له ولد اسمه قسطنطين من امراته هيلانه وكان مولده سنة ٢٧٤ مسيحية وكانت ملامح الشجاعة والنجابة تظهر على هذا الولد وهو ينمو حتى اذا ماشبّ اصبح ذا مكانة عالية عند ديو كلتيان ونفوذ كبير بين الجنود وتزوج ابنة الملك مكسيميان هرقل . فلما مات والده لقبوه بلقب اوغسطوس ونودي باسمه في الفيلق الذي كان في بريطانيا ثمّ جعل يشن الغارات ويقيم الحروب الى أن قتل حميه الملك مكسيميان هرقل سنة ٣١٠ مسيحية وحمل على ابنه مكسنس الذي كان قد نودي به ملكا في رومية

على أن اشراف المملكة الرومانية وكبار قوادها وسراتها لما رأوا من قسطنطين توغله في الفتوحات الى درجة بات يخشى منها أن يستقل بالمملكة الرومانية بجملتها وقدروا أن من وراء ذلك سقوط نفوذهم وضياع مجدهم لانهم كانوا في انقسام الملوك السابقين وتعددهم أصحاب الكلمة العليا لاحتياج الملوك اليهم اخذوا يفكرون بما يحبط مساعيه والتفوا من حول مسكنس وقاموا لمناواة قسطنطين

نخشي قسطنطين شرهم وهو مهاجم رومية وحسب لهم الف حساب وحساب لعلمه أنهم القابضون على ذخائر الثروة وبوسعهم أن يقاوموه الى درجة يتغلبون عليه بها وأخذ يفكر كسياسي بما ينصره عليهم ويؤيد كلمته بينهم وينيله ما تطمع اليه نفسه من السلطة العليا والجاه الطويل العريض في الامبراطورية الرومانية فضرب اخماساً لاسداس وبعد اعمال الروية فكر بالمسيحيين واقرّ على الانتصار بهم واتخاذ المسيحية سبباً لبلوغ منتهى السلطة التي كانت تطمح اليها نفسه

وكانت المسيحية في هذا العهد قد امتدت امتداداً عظيما بين الطبقة الدنيا من الشعب وهم القسم الذي منه يكون الجند عادة وعرف قسطنطين أن المسيحيين كارهون للملوك والاشراف الذين كانوا يضطهدونهم ويعتدون عليهم ويذيقونهم كل مر ّ فرأى بدهائه السياسي وبعد مواقع نظره أن يستخدم هذا الدين وأهله لقهر اخصامه

وبفكرة هائلة قدر أن يستميل المسيحيين اليه ويستخدمهم لمآربه واغراضه ويأمن عليهم من أن يشتريهم اعداؤه بالاموال وقد نال ما ارتجى وابتغى واليك البيان

أصبح قسطنطين ذات يوم بعد دراسة الاصول المسيحية طبعاً وامر أن تجعل اعلام جنوده صلباناً وادعى انه ظهر له عند الزوال في كبد السماء صورة صليب مؤلف من أشعة الشمس وانه رأى تحت الصليب هاتين الكلمتين « بهذا تنتصر » وانه اندهش مما رأى وما زال يفكر برؤياه الى الليل حيث حلم أن سيدنا عيسى عليه السلام ظهر له مع العلامة التي شاهدها في النهار في الجوّ وأمره أن يضع اعلام جيشه على مثالها فتكون له عوناً في حروبه وغزواته

ولما أعلن هذه الرويا للملا التفّ المسيحيون من حوله وعضدوه في حربه التي رفع بها الاعلام الصلبانية واشهرها على مكسنس فانتصر عليه ودخل رومية ظافراً فاقامت له الندوة الرومانية قوس نصر ونصب له الرومانيون تمثالا من الذهب كالآلهة وكان تمثاله هذا حسب ارادته وفي يده الصليب

فيرى القاريء من هذه الحادثة التاريخية ان قسطنطين استخدم الدين المسيحي الذي هو دين السلام للحرب ولم يكفه هذا حتى خالف الدين

باقامة تمثال له كالآلهة الوثنيين فكان ذلك بدء عهد المسيحية بالتماثيل مع مخالفتها للشريعة الالهية التي رويناها في الفصل السابق

ولم يكتف قسطنطين بهذه الموقعة بل واصل حروبه حتى سنة ٣٢٤ حيث قهر مقاوميه ومناوئيه واستبد بالامبراطورية الرومانية بجملتها . وفي هذه الاثناء اعطى الحرية للمسيحيين وعفا عن المنفيين منهم وردّ عليهم كنائسهم ومدافنهم التي كانت ضبطتها الامبراطورية وزاد على ذلك أنه جعل يوظف المسيحيين في وظائف الدولة حتى جعل ولاة المدن منهم وانحى على الوثنية وصار يحاربها

غير أنه رأى أن انتصاره للمسيحية واضطهاده للوثنية لم يرق في عيون اهالي رومية وانهم جعلوا يما كسونه سراً بالرغم عن سلطته وقوته نخاف شرهم وترك رومية العظمى وسار الى قرية في البوسفور تدعى بيزنطيه أو بيزنطة فجعلها عاصمة ملكه ودعاها باسمه فعرفت فيما بعد باسم القسطنطنية وكان ذلك سنة ٣٢٦ مسيحية وفي هذا العهد دخلت النصرانية في طور جديد غير الذي وضعه لها سيدنا عيسى عليه السلام ولعب فيها قسطنطين دوراً غريباً مدهشاً



الفصل الثالث

النصرانية الجديدة

رأى قسطنطين الملك أن استخدام النصرانية لاغراضه قد افاده اكثر مما كان يظن وبحول النصارى وكانوا اكثر عامة الشعب قد تمكن من الامبراطورية الرومانية واخضعها لشوكته ورأى فوق ذلك أن روساء النصرانية كالباباوات والاساقفة والقسيسين قد خضعوا لشوكته واستسلموا له كل الاستسلام فرأى وهو الداهية الذي عرفناه أن يحور النصرانية ويجعلها موافقة كل الموافقة لاغراضه فامر بجمع مجمع من الاساقفة والقسيسين لوضع نظام للكنيسة وبالفعل التأم هذا المجمع في مدينة نيقيه ودعي باسم المجمع النيقاوي وكان التئامه تحت رئاسة قسطنطين نفسه

واعمال هذا المجمع غريبة ومدهشة ففيه اقرّ القسس على وجوب الاعتقاد بان سيدنا عيسى هو ابن الاله الحي الواحد الاحد والمساوي له في جوهره وهكذا جعلوا المخلوق خالقاً وكان في المجمع قس مسيحي غيور على دينه يسمى آريوس فرفض بكل جراءة هذا الاشراك فكان نصيبه أن قتلوه وشنعوا باعتقاده

ثمّ جمع هذا المجمع الاناجيل النصرانية وكانت عديدة لكل واحد من حواريي سيدنا عيسى عليه السلام وتلاميذهم انجيل فاحرقها واقرّ على اربعة منها وجدوها ملائمة لاغراضهم وادخلوا عليها ما يلائم ما في نفوسهم مما لا نتصدى له لانه من المباحث الدينية

ووضع هذا المجمع مبدأ الاعتراف وهو أن يأتي النصراني للقسيس فيعترف

له بسيئاته ليغفر له خطاياه وقد أراد قسطنطين بذلك أن يقف على نوايا الشعب ودخائل قلوبهم بواسطة جواسيسه من القسيسين كما اراد بتاليه سيدنا عيسى أن يجعل لخلفائه من القسيسين سلطة الهية على النصارى ليحملوهم على طاعة الملك والخضوع لاوامره ونواهيه

ولما كانت قرارات هذا المجمع موافقة للملك قسطنطين ومؤيدة للملكه اخذ ينفذها بكل صرامة وجعل يحارب كل من خالفها من المسيحيين بحد السيف فقتل خلقاً عظيما وكان سخطه الاوفر على اتباع آريوس الذين كانوا مصرين على الاعتقاد بسيدنا عيسى انه من روح الله و رسوله وما زال هو واتباعه يحملون باعناقهم حدّ السيف حتى لاشوهم وكان مقرهم في الشرق في جهات بابل وما بين النهرين وسوريا

وهكذا انقضت الثلاثمائة سنة التالية أي القرون الرابع والخامس والسادس المسيحية في الشرق على اسوأ حال فتضعضعت فيها المدنية واندرست آثار العمران وتحول العلم والفلسفة الى مجادلات دينية وحروب أهلية ومشاحنات مذهبية واضطرابات داخلية فلا حول ولا قوة الا بالله

هذا ما كان بالشرق لان الشرق كان وقتئذ مهد المدنية والعلم وكان فيه من يقوى على معرفة الحقائق من علماء الشعب وقسيسيه اما في الغرب فكان الخطب ادهى وامر لاننا اذا استثنينا رومية وما جاورها لا نجد فيه الا شعوبا حمقاء جاهلة لا تفقه شيئاً من العلم وليت عندها اثر للمدنية والحضارة وناهيك باهل أوروبا في ذلك الزمان ببداوتهم وهمجيتهم

فالنصارى في اوروبا في هذه القرون الثلاثة أي الرابع والخامس والسادس المسيحية كانوا آلة صماء بايدي رؤسائهم الدينيين من البابا الى

ادنى طبقات القسيسين وانضموا بجملتهم بكل سكون الى اوامر قسطنطين والمجمع الديني الذي عقده ودانوا بكل معتقداته الجديدة وتحديداته وانشغلوا في هذه السنوات الثلاثمائة في محاربة الوثنيين ومحاربة الوثنيين لهم فكانوا في شرّ مستطير من هذا القبيل

والذي ازاد في الطنبور نغمات هو أن ملوك القسطنطينية وكانوا معروفين بملوك الشرق لم تدم سلطتهم على اوروبا بعد هلاك قسطنطين بل قاموا للعصيان واشتبكت الحروب بينهم وما زالوا كذلك الى اواسط القرن الخامس حيث انسلخت سلطة هؤلاء الملوك الشرقيين عن اوربا تماما بعد أن اندرست آثار العمران من نفس ايتاليا التي كانت مهد المملكة الرومانية وايتاليا نفسها انقسمت على نفسها بين حروب دينية بين الوثنية والمسيحية

ومما لا بدّ من ذكره في هذا المقام هو أن المسيحيين يطعنون على ديننا الحنيف بانه قام بالسيف والذي يقرأ تواريخ اوروبا في هذه القرون الثلاثة يرى أن المسيحيين عند ما كانوا يقوون على الوثنيين يعملون في رقابهم حدّ السيف ويهدمون هياكلهم وكنائسهم وكذلك كان يعامل الوثنيون النصارى عند ما يكون النصر في جانبهم والقوة في ايديهم فاذا كان هذا تاريخ النصارى عند ما اشتدّ ساعدهم بتنصر الملوك أفيليق بهم أن يطعنوا على الاسلام الذي كان من قواعده الاساسية الجوهرية أن لا اكراه في الدين وأن يعامل المسلمون من دخل في ذمّتهم من اهل الكتاب ولو من الوثنيين معاملة اجلال واكرام ولكن الغرض مرض وكل ما يتقولون علينا اختلاق وحسبنا بهم انهم لا يعرفون من حقائق ديننا وتاريخنا الا ما يسوقهم اليه تعصبهم الاعمى ضد القرآن الشريف ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم

الفصل الرابع

في أن الاسلام وجد للهدى والمدنية

أن المؤمنين بالله واليوم الآخر من اهل الكتاب من يهود ونصارى ومسلمين يعتقدون أن العناية الالهية كانت ولم تزل ملازمة للانسان وهو على هذه الارض وأن الله سبحانه ما ارسل انبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام الا لمصلحة هذا الانسان وتأهيله للسعادة الدائمة في جنان الخلود وللراحة في هذه الحياة

فاذا كان هذا معتقد الناس الذين يعرفون الله بالهم الا يرون أن الله سبحانه وتعالى بجميل عنايته بهذا الانسان اصبح مضطراً الى ارسال نبيّ يهدي الناس الى الهدى بعد الضلال والى التوحيد بعد الاشراك وأن يقومّ خطواته في هذه الحياة الدنيا في سبيل العلم والمدنية بعد أن تمادى في غيه فاحلّ الحرب محل السلام وصارت الارض على ما وضعنا مقراً لسفك الدماء بالمنازعات الدينية والحروب الاهلية

لهذا ارسل الله سبحانه نبينا العربي الامي لهداية الناس وارشادهم الى الصراط المستقيم فجاء بكلمة التوحيد وجاء مشترعا احسن الشرائع لرقي الناس وتقدمهم بشريعة كانت ولم تزل موضع اجلال واعتبار كل من له المام باصول الشرائع وسنّ القوانين

وقد ذكرنا في الجزء الاول من هذا الكتاب الاسباب التي اهلت العرب ليكونوا مصدر هذه الهداية ببعثة نبينا منهم وذكرنا تأثير ظهوره الحسن في الشرق حيث استقبل الشرقيون رسالته عليه السلام بالبهجة

والحبور ودانوا لكتابه الشريف بكل سرور وحسبوا ذلك منجاة من الحالة السيئة التي اوصلتهم اليها النصرانية « نصرانية قسطنطين »

أما تأثير ظهور نبينا في الغرب فكان عظيما لان الاسلام هو الذي نبه اهل اوروبا الى العلم وهو الذي أوصل اليهم المدنية واحيا فيهم روح النهضة من ثبات جهلهم العميق

فان خلفاء بني أمية بعد ان توسعوا في فتوحاتهم في جهات اسيا وأفريقيا على قدر ماتسنى لهم انتقلوا الى أوروبا من طريق مضيق جبل طارق الذي اخترقه القائد طارق الشهير بجيش المسلمين فسمي باسمه وكانت أول بلاد دخلوها في اوروبا هي بلاد اسبانيا أو الاندلس

وقد ازهرت المدنية الاسـلامية في الاندلس وتجلت بأسمى مجاليها فشيد المسلمون الجوامع والمدارس ومصروا الامصار وأقاموا المدن وأصبحت الفلسفة عندهم والعلم في صدور علمائهم وارجع الى التاريخ يحدثك عن عهد المسلمين في هاتيك البلاد بما ليس بعده من مزيد لمستزيد . بينما كانت مدنية الخلفاء العباسيين متلالية في بغـداد ومزهرة في أراضي البابليين والاشوريين والسريانيين الى درجة اذا ذكرها المسلم تأثر وتحسر وأنشد مع الشاعر العربي

أولئك آبائي فجئني بمثلهم اذا جمعتنا ياجرير المجامع

هذا كان حال المسلمين وهذه كانت مدنيتهم في بغداد ومصر والاندلس بينما كان الاوربيون لاهون أو متلاهون بجهلهم وغباوتهم ومشتغلون بالمجادلات الدينية والحروب المذهبية

على ان التعصب الاعمى ضد المسلمين ساق نصارى أوروبا الى مناهضة

أهل هذا الدين في الاندلس واجلائهم عنها خوفاً من ان يتوسعوا في أوروبا فيملكونها بأجمعها لان الجهل لا يقف امام العلم « وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون »

وكان اجتماعهم هذا ضدّ المسلمين أول اجتماع للنصارى لمحاربة أهل التوحيد بشكل تعصب مخيف هائل لو حدثناك عنه لقفّ الشعر في رأسك واضطربت أعصابك من شرور أهل التعصب والعياذ بالله

الفصل الخامس

في نشأة التعصب الاوروبي

الالمام بتاريخ الاندلس على عهد الاسلام مما يستغرق المؤلفات الضخمة والاشارة الى ما كان هنالك من مظاهر المدنية وآثار العمران مما لا يحصره فصل أو فصول من هذا الكتاب ولقد أجمع المؤرخون على ان العرب لما ملكوا الغرب وانتقلوا منها الى الاندلس الفوا الاندلسيين في حالة من الجهل والهمجية هي دون حالة العرب عند ما ظهرت فيهم أنوار النبوة على صاحبها الصلاة والسلام

وكان هؤلاء الاندلسيون أو الاسبانيون مع جهلهم وهمجيتهم خاضعين خضوعاً أعمى لرؤسائهم وهم عند هؤلاء الرؤساء بمنزلة العبيد فكل رئيس قرية ويسمى «دوق» أو « كونت » هو سيد القرية المطلق وكلما في القرية من أراضي ومواشي داخل في ملكه حتى الناس أيضاً . ومن العجيب ان النصرانية لم تحرر أولئك الناس من رقّ عبودية الاشراف مع ان آذاننا قد

صمت في هذا العصر من سماع أصوات الاوربيين الطاعنين على الاسلام بأنه الدين الذي أوجد الرق والعبودية خلافاً للنصرانية التي حررت العبيد فتأمل
وكان من مزايا المسلمين الفاتحين في الاندلس انهم أعلنوا المساواة والعدالة بين الناس وكانا مفقودتين لذلك العهد في عموم أوروبا فأقبل الوطنيون عليهم واحلوهم على الرحب والسعة في بلادهم ودخلوا في دين الله أفواجاً فأزهر الاسلام في تلك المقاطعة في الوقت القصير بحيث لم يمض مئة عام على دخولهم ذلك المصر حتى أصبح درة في تاج أوروبا في الفلسفة والعلم والادب والعمران على ماهو ظاهر وواضح
وكان من بقي على اليهودية والنصرانية في الانداس متمتعين بكل حقوق المسلمين وعائشين بينهم بالرغد والامان لهم ماللمسلمين وعليهم ماعلى المسلمين حسب المبادي الاسلامية العليا فارتقوا مع المسلمين في كل شيء ارتقوا بالعلم والفلسفة ولادب والعمران بينما كان اخوانهم في بقية الممالك الاوربية كفرنسا وانكلتره وايتاليا وروسيا في ظلمات متكاثفة من الجهالة بعضها فوق البعض والعياذ بالله
وكان هؤلاء النصارى الاوربيون عدا همجيتهم وجهلهم عبيداً لامرائهم وملوكهم وسراتهم بينما كان هؤلاء الملوك والامراء والسراة عبيداً للرجال الدين القسيسين المسيطرين على العقول والاجسام بدعواهم ان لهم السلطان المطلق على الجنان يدخلون اليها من يشاؤون ويمنعون عنها من يشاؤون
خاف هؤلاء القسيسون على سلطانهم المطلق ان يضيع بانبعاث أنوار العلوم من سماء الاسلام في غرب أوروبا كما خاف ملوك أوروبا وأمرائهم وسراتهم على دولاتهم ان يديلها الاسلام لما رأوا من سرعة انتشاره

واقبال الناس عليه ولهذا اتحدت السلطتان الدينية والمدنية في كل أوروبا على المسلمين واجلائهم عنها وأزادهم اتحاداً على المسلمين ماشاهدوه من توسعهم في محاربة الفاتحين للمسلمين حتى كادت فرنسا الجنوبية أن تقع في قبضتهم وهكذا نودي بالجهاد العام ضد المسلمين في أوربا بحرب صليبية افضت مع الاسف لجلاء المسلمين عن الاندلس وكان هذا فاتحة الحروب الصليبية

الفصل السادس

في الاسباب التي افضت لاندحار المسلمين عن اوروبا

اننا نذكر هذه الحادثة الموجعه للمسلمين بدموع تتهاطل حزنا والماً لانها كانت سبباً كبيراً لتقهقر الاسلام

والذي يطالع التاريخ يرى أن تكالب نصارى اوروبا ضد المسلمين لم يكن السبب الوحيد في انخذالهم واجلائهم عن اوربا بل لذلك سبب آخر ربما كان اعظم من الاول وهو تخاذل المسلمين وانقسامهم على انفسهم

فمن المعلوم المعروف أن الاسلام اوصى بالشورى واوصى بالتآخي والاتحاد ولكن ذلك لم يدم لاكثر من ثلاثين عاما بعد وفاة نبينا صلى الله عليه وسلم حيث ظهر معاوية الاموي واستبد بالخلافة وحصرها في نفسه

وتولد عن ذلك أن المسلمين انقسموا على انفسهم انقساما سياسياً البسوه ثوبا دينياً كان سبباً لخذل المسلمين لان معاوية اغتصب الخلافة من الامام علي بدم عثمان وجعل يلعنه على المنابر

وتم فتح الاندلس على عهد الامويين وكانت تابعة لهم ولما دالت دولتهم

وقامت خلافة بني العباس وهم ابناء عم نبينا صلى الله عليه وسلم نكل هؤلاء عن بقي من بني امية على عهد السفاح أول خلفاء العباسيين واراد بذلك في الظاهر ارضاء الشيعة انصار الامام علي كرم الله وجهه وهم الذين نصروا العباسيين على بني امية وفي الباطن ضعضعة بني امية حتى لا يبقى منهم من يطالب بالخلافة فيتعبها لما كانوا يعلمون من تملق اهل الشام بالامويين ونصرتهم لهم

وقد سلم رجل من الامويين كان قد تأخر عن دعوة الخليفة السفاح في بغداد فلما علم بنكبتهم فرّ من وجههم ولحق بالاندلس فتلقاه الاندلسيون بالترحاب وهم صنيعة الامويين وامروه عليهم وقطعوا علائقهم السياسية نهائياً مع الخلافة العباسية ولم يرَ العباسيون وسيلة لاخضاعهم لبعد الشقة فتركوهم وشأنهم وهذا هو عبد الرحمن الاول الاندلسي الذي كان حفيد عبد الرحمن الثاني اعظم امراء الاندلس ونادى بنفسه خليفة الاسلام في نحو سنة ٢٣٠ للهجرة وعلى ايامه ازهرت الخلافة الاندلسية وسطعت انوارها

ومن هنا نعلم أن مسلمي الاندلس بعملهم ذاك الذي قطعوا فيه كل صلة بالمسلمين اصبحوا بمعزل عن اخوانهم معرضين الى الخسران وكأني بهم قد طمعوا بجهل الاوربيين فامنوا على نفوسهم ولو علموا ما سيكون من عقبى تخاذلهم لما رضوا ذلك الانسلاخ عن جامعتهم ولكن قدر فكان « وتلك الايام نداولها بين الناس » الآية

ومن المحقق أن المسلمين في الاندلس لو كانوا على عهد تالب نصارى اوروبا عليهم متحدين متناصرين لما انخذلوا ذلك الانخذال المبكي الذي قال فيه احد شعراء الاندلس القصيدة التالية وهي تفصح باجلى بيان عن حالتهم

حين جلائهم عن بلاد اسبانيا بحد السيف وما لاقوه بعد الجلاء وستراها بنصها في الفصل التالي

الفصل السابع

في رثاء الاندلس

لابي البقاء صالح بن شريف الرندي

لكل شيء اذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش انسان

هي الامور كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته ازمان

وهذه الدار لا تبقي على احد ... ولا يدوم على حال لها شان

يمزق الدهر حتما كل سابقة ... اذا نبت مشرفيات وخرصان

وينتضي كل سيف للفناء ولو ... كان ابن ذي يزن والغمد غمدان

اين الملوك ذووا التيجان من يمن ... واين منهم اكاليل وتيجان

واين ما شاده شداد في ارم ... واين ما ساسه في الفرس ساسان

واين ما حازه قارون من ذهب ... واين عاد وشداد وقحطان

اتى على الكل امر لا مرد له ... حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا

وصار ما كان من ملك ومن ملك ... كما حكى عن خيال الطيف وسنان

دار الزمان على دارا وقاتله ... وام كسرى فما آواه ايوان

كأنما الصعب لم يسهل له سبب ... يوما ولم يملك الدنيا سليمان

فجائع الدهر انواع منوعة ... وللزمان مسرات واحزان

وللحوادث سلوان يسهلها ... وما لما حل بالاسلام سلوان

دها الجزيرة امر لاعزاء له ... هوى له أحد وانهد شهلان

اصابها العين في الاسلام فارتزأت ... حتى خلت منه اقطار وبلدان

فاسأل بلنسيه ما شأن مرسية ... واين شاطبة ام اين جيّان

واين قرطبة دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان

واين حمص وما تحويه من نزه ... ونهرها العذب فياض وملآن

قواعد كنّ اركان البلاد فما ... عسى البقاء اذا لم تبق اركان

تبكي الحنيفية البيضاء من اسف ... كما بكى لفراق الالف هيمان

على ديار من الاسلام خالية ... قد اقفرت ولها بالكفر عمران

حيث المساجد قد صارت كنائس ما ... فيهنّ الا نواقيس وصلبان

حتى المحاريب تبكي وهي جامدة ... حتى المنابر ترثي وهي عيدان

ياغافلاً وله في الدهر موعظة ... ان كنت في سنة فالدهر يقظان

وما شياً مرحا يلهيه موطنه ... أبعد حمص تغرّ المرء أوطان

تلك المصيبة أنست ما تقدمها ... ومالها مع طول الدهر نسيان

ياراكبين عتاق الخيل ضامرة ... كانها في مجال السبق عقبان

وحاملين سيوف الهند مرهفة ... كأنها في ظلام النقع نيران

وراتعين وراء البحر في دعة ... لهم باوطانها عزّ وسلطان

أعندكم نبأ من اهل اندلس ... فقد سرى بحديث القوم ركبان

كم يستغيث صناديد الرجال وهم ... قتلى واسرى فما يهتزّ انسان

ماذا التقاطع في الاسلام بينكمو ... وانتمو يا عباد الله اخوان

ألا نفوس ابيات لها همّ ... أما على الخير انصار واعوان

يامن لذلة قوم بعد عزهم ... أحال حالهمو جورٌ وطغيان

بالامس كانوا ملوكاً في منازلهم ... واليوم هم في بلاد الكفر عبدان

قالوا تراهم حيارى لادليل لهم | عليهمو من ثياب الذلّ ألوان
ولو رأيتَ بكاهم عند بيعهمِ | لهالك الامر واستهوتك أحزان
يارُبَّ أم ٍ وطفل حيل بينهما | كما تفرق أرواحٌ وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس اذ طلعت | كأنما هي ياقوتٌ ومرجان
يقودها العلج عند السبيِ مكرهةً | والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمدٍ | ان كان في القلب اسلامٌ وايمان

والذي يمعن الطرف في هذه القصيدة يرى ناظمها رحمه الله يبكي الاندلس ويستبكي عليها لا لان دولة المسلمين قد دالت من هاتيك الربوع التي عمروها بل لان المسلمين قد نكبوا فيها نكبة ذهبت بهم جميعاً بحيث لم يبق النصارى في هاتيك البلاد من يقول كلمة « لا اله الا الله » فلا حول ولا قوة الا بالله

الفصل الثامن

في المظالم التي أوقعها الاوربيون على المسلمين

لايستطيع الكاتب مهما كان بليغاً ولا الخطيب مهما كان فصيحاً ان يمثل للقاري الكريم حادثة من تلك الحوادث الفظيعة التي مثلها القسيسون المتعصبون ضدّ المسلمين في الاندلس عند مادالت دولتهم وانطوى بساط ملكهم «وتلك الايام نداولها بين الناس »

فقد أ فحشت النصرانية في ظلم من لايدين بدينها وسواء في ذلك اليهود والمسلمون وهم الاهيون موحدون أو أهل الوثنية وما زالوا يتوسعون في هذه المظالم والمغارم حتى انتهوا الى «ديوان التفتيش » ذلك الديوان الذي

كان ولا يزال وصمة عار في تاريخ النصرانية

نعم ان ديوان التفتيش الذي أنشأه البابا وات لمعاقبة من لايدين بالنصرانية كان مصدر الرجاسات ومقرّ المظالم والمنكرات واتى من فظائع الاعمال مايشيب لذكره الوليد وينفطر له القلب الحديد

ان ديوان التفتيش في أوروبا الذي انشئ لاضطهاد المسلمين وملاشاتهم هو نقطة سوداء في صفحة النصرانية لاتمحى والذي يزيده فظاعة انه صادر عن رجال دين يعلمهم ان يحبوا اعداءهم ويحسنوا لمن يسيء اليهم ومن ضربهم على الخد الايمن فليحولوا له الايسر فياليت شعري ماكانوا يفعلون لو لم يكن في أصول دينهم مثل هاتيك التعاليم المملوءة من الشفقة والحنان وقد أتوا من الفظائع والمنكرات مايتعالى عنه الحيوان الاعجم ضد أخيهم الانسان

نعم ان ديوان التفتيش في أوروبا يكفي وحده للدلالة على ان النصرانية ليس فقط لم تخدم المدنية وترقيها بل ضعضعت مدنية الرومانيين الذين كانوا قبل تنصرهم على الوثنية لان التاريخ لم يرو عن الرومانيين الوثنيين على شدة اضطهادهم للنصرانية بعض ماأثبته على الباباوات الذين يدعون انهم خلفاء الله على الارض وانهم رسل السلام

الف البابا وات ديوان التفتيش وجعلوا أعضاءه من القسيسين ليخدموا النصرانية بالسيف ومع هذا فابناؤهم اليوم يعيرون المسلمين بأن الاسلام قام بالسيف فمن منا الصادق ومن الكاذب والتاريخ أعدل شاهد وهو في أيدي العالمين

ان المسلمين في الاندلس لم يسيئوا الى النصرانية في أبان مجدهم ولم يضطهدوا النصارى في عزة ملكهم بدليل كنائسهم التي كانت بجوار جوامع

المسلمين واديرتهم وصوامعهم المنتشرة على رؤوس الجبال ولكن لما دالت دولة المسلمين وسادت النصرانيـة على البلاد انقضوا على الجوامع فحولوها كنائس وعلى المدارس فخلفوها دوارس ويا ليتهم اكتفوا بذلك ولكنهم لم يكتفوا بل نهبوا المسلمين وسبوا نساءهم ويتموا اطفالهم واغتصبوا املاكهم وآلوا على انفسهم ان لا يبقوا في البلاد دياراً منهم فارتحل من ارتحل منهم الى المغرب وتنصر من تنصر وقتل من قتل

اما الذين قتلوا فهم شهداء ولهم الجنـة واما الذين هاجروا الى المغرب فقد ارتحـلوا اليها على مايشهد التاريخ جياعى عرايا لايستر اجسامهم ثوب وليس لديهم قوت يوم واما الألى تنصروا او تظاهروا بالنصرانية فهؤلاء هم الذين ذاقوا الامرين وعانوا من الاضطهاد كل هون وشاموا من المظالم مادونه هول المنون

كان ديوان التفتيش يرقب هؤلاء المتنصرين قهراً وما تركوا الاسـلام الا اضطراراً وكان اعضاؤه القسيسون الاخساء يتجسسون احوالهم حتى اذا انسوا من واحد منهم البقاء على الاسـلام ولو سراً جاؤا به الى الديوان وجعلوا يعذبونه انواع العـذاب حتى اذا اقرّ بالتوحيد اذاقوه الموت الاحمر حرقاً بالنار

اما تلك العذابات التي كانوا يتخذونها وسيلة للتقرير فكثيرة نعد منها ولا نستطيع ان نعددها فكانوا يأتون بالمجرم ويسجنونه في حجرة منفردة ويدخل عليه احد القسيسين لاستجوابه فاذا اقرّ بالاسلام اخـذ الى النار حثيثاً واذا امل بالحياة وانكر الاسلام جاؤه بانبوب يضعونه في فمه ويأخذون بصب الماء منه الى ان تنتفخ امعاؤه وهو يبكي ويستجير وما من مجير حتى

اذا تلاشت قواه نيتركونه جائعاً الى غده ثمّ يأتونه في اليوم التالي ويعيدون استجوابه فاذا تشبث بالانكار قلعوا أظافر يديه ورجليه وفي اليوم الثالث كووا جسمه بالنار ولا يزالون كذلك معه في تعذيب دونه عذاب الجحيم الى ان ينطق بالشهادتين ويزجونه بالنار

وما كانت تقتصر مظالمهم هذه على المتنصرين من المسلمين بل كانوا اذا انسوا من أحدهم ثروة لايفتأون يتهمونه ويعذبونه حتى يسلبونها منه وبمثل هذه المظالم لم يتركوا في الاندلس مسلماً يوحد الله بينما كان النصارى أهل التثليث في بلاد الاسلام يتنعمون بالراحة والامان لهم ماللمسلمين

ومع ان هذه الحقائق التاريخية واضحة ظاهرة للعيان ومعروفة من كل انسان لايخجل أعداء الاسلام من رميه بوصمة التعصب ونسبة الهمجية اليه . على ان اللورد كرومر وهو أحد أولئك الطاعنين على الاسلام قال في كتابه «مصر الحديثة» في معرض كلامه عن الاسلام وانه غير ملائم للمدنية مانصه «ولا ننكر ان تاريخ المسلمين لم يوجد فيه فظائع تعادل فظائع ديوان التفتيش» وانها لشهادة من خصم خليقة بالتقدير والاعتبار

ونحن لانجاري خصوم الاسلام في التغالي بالقول فان النصرانية هي مصدر هذه الفظائع التي جرها التعصب ولكنا نقول ان النصرانية لما كانت ذات تعاليم لاتصلح للمدنية تركها النصارى حتى القسيسون بتاتاً من مبدأ «الافراط كالتفريط» واعطوا لانفسهم القياد في ارتكاب المساوي والموبقات

وبما ان حوادث ديوان التفتيش كانت في الجيل الرابع عشر المسيحي كان لنا ان نقول ان النصرانية بعد الف وأربعماية عاماً من ظهور سيدنا عيسى عليه السلام وانتشار تعاليمه لم تؤثر أقل تأثير على المدنية

الفصل التاسع

في الرجوع الى حال المسلمين في الاجيال

التي قبل عهد ديوان التفتيش

ظهر لنا مما أجملناه آنفاً ان النصارى كانوا في أدنى دركات الهمجية في القرن الرابع عشر المسيحي أي ان دينهم الذي دانوا به وهم يقولون انه دين المدنية والحضارة لم يؤثر على عواطفهم واخلاقهم بعد ان أقام فيهم مدة الف واربعماية عام بطولها وهو عهد طويل مديد يكفي لجعل هذا الحيوان الاعجم مدنياً متحضراً

أما المسلمون فيري المطالع في تاريخهم ان الاسلام اثر عليهم منذ ظهوره بينهم وما من يجهل أن الاسلام ظهر في جزيرة العرب بين جماعة من أهل البادية و رعاة الانعام وهم خشنو الطباع طبعاً فلطف من خشونتهم وهذب من طباعهم الى حد عجيب ومدهش

فبينما كان العرب في جاهليتهم يئدون بناتهم ابطلوا هم انفسهم « وليس ابناؤهم » تلك العادة الخشنة وشعروا بفظاعتها حتى أن الامام عمر رضي الله عنه حدث القوم عن نفسه فقال « الا يجب أن نحمد الله على نعمة الاسلام فاني والله لاذكر ما كنا فيه من خشونة حتى اني انا نفسي خرجت في الجاهلية مع ابنة لي الى الفضاء واخذت احفر الارض فيتطاير الغبار على لحيتي وابنتي تنفض الغبار عنها حتى اذا انتهيت من عملي طرحت تلك المسكينة في الحفرة وردمت التراب عليها وعدت كأني لم اجن افظع الجرائم » قال هذا واستخرط بالبكاء . فتأمل كيف اثر الاسلام على ذلك القلب الصلب

حتى جعل يستفظع عمله وكان يحسب انه اتى عملا محموداً فقد اصطلح عليه قومه

وبينما كان الناس لا يعرفون من الاحكام الا الاستبداد والظلم جاء الاسلام بنفر من رعاة الانعام وحكمهم على رقاب الناس فانصفوا وعدلوا حتى اصبحت كلمة « الاسلام » بعرف العالم اجمع مرادفة لكلمة « العدل » وما ذلك الا بتأثير دينهم عليهم لان اولئك الحكام الذين تولوا الاحكام لم يتعودوها قبل النبوة بل ما كانوا يعرفون من امر الحكم الا انهم كانوا يذهبون الى بلاد الفرس وبلاد الروم فيشاهدون من مظالم الاكاسرة الوثنيين والقياصرة النصارى المظالم والمغارم أفلا يحق لنا بعد هذا أن نقول أن ذلك كله كان بنعمة الاسلام؟؟

ثمَّ فلنسرح الطرف قليلا في احوال البلاد التي دخلها الاسلام في بدء نشأته أي على عهد الخلفاء الراشدين افهل رأينا انهم دخلوا مدينة فهدموا عمرانها وقلبوا كيأنها « معاذ الله » بل رأيناهم أزادوا المدنية زهواً والحضارة بهاء وفوق ذلك مصروا الامصار وعمروا الديار فهلا يحق لنا ان نقول ان ذلك كان بفضل الاسلام »

ومما لا ريب فيه أن عهد الخلفاء الراشدين باجماع المؤرخين كان عهداً مملوءا من المحامد الزاهرة والمآثر الباهرة مما يترنم بوصفه الناس جيلا بعد جيل واذا كان هذا العهد لا يقارن بعهد بدء النصرانية لما اسلفنا في الجزء الاول من كتابنا هذا من أن النصرانية كانت في بدء عهدها دين الفقراء المنتشرين في الكهوف أفلا يحق لنا أن نقارنه بعهد قسطنطين الملك وهو اول ملك خلع عنه الوثنية وتردى بلباس المسيحية ورفع الصليب ونهض لحمايته ؟؟

الفصل العاشر

﴿ في خلافة بني امية ومقارنتها مع العصور المسيحية الاولى ﴾

ثمّ انقضى عهد الخلفاء الراشدين عليهم رضوان الله اجمعين بقيام معاوية الاموي واغتصابه الخلافة وحصرها بذريته فتحولت آنئذٍ الى «ملك عضوض» وكان ذلك ولا شك اول خطوة بعدت بالاسلام عن روح الدين القاضي« بالشورى»

والناظر الى الخلافة الاموية بامعان يحكم بانها دون خلافة الراشدين عدلا وفضلا . وما كان ذلك بتأثير الدين بل لانها خالفت سنة الرسول الامين « صلى الله عليه وسلم » وقد اقتفى معاوية اثر الخلفاء الراشدين في العدل والفضل وخدمة العمران الا أن ذلك اخذ يضعف رويداً رويداً في اعقابه الذين لم يسلموا من بعض المظالم والمغارم الا ان ذلك كله لا يعد بشيء بالنسبة الى المظالم التي كانت تجري في البلاد النصرانية في القرون الثلاثة الثانية أي القرن الرابع والخامس والسادس المسيحية حيث كان ملوك القسطنطينية مختلفي المذاهب وكل من يجلس على سرير الملك لا يعرف بسياسة بلاده الا تأييد مذهبه واضطهاد الذين لا يخضعون له فكانوا يجرون البطارقة والقسيسين الى القتل والنفي فيسجنون المخالفين لهم من النصارى ويقتلون بعضهم بعضاً وهكذا كانوا يعوثون في البلاد فساداً فتسقط البلاد في دركات الجهل والهمجية على ما هو معروف ومشهور فاين عهد هؤلاء الملوك المسيحيين من عهد الخلفاء الامويين ؟ واين كانت النصرانية التي يقولون انها مصدر المدنية والعمران ؟ وما هو هذا العمران وذاك التمدن اللذان اوجدتهما النصرانية في تلك العصور

التعصبية الهمجية المظلمة ؟

ووالله لنشفق على القاري الكريم ان نفصل له تفصيلاً ماأشرنا اليه من هذه المظالم التي تمثلت على عهد الملوك المسيحيين في البلاد التي أهلها كلهم أوجلهم من المسيحيين أنفسهم

اما معاملة المسيحيين لاهل الوثنية في ذلك العهد فما تصمّ له الاسماع وتنفر منه الطباع فقد كان الوثني في ذلك العهد موضع كل ظلم واضطهاد واحتقار وهو معرّض دائماً أبداً للقتل والنهب وكانت حقوقه مهضومة فلا تسمع له دعوى على مسيحي ولا تقبل له شهادة ولا تصان له حرمة وسيان ذلك في الشرق حيث كانت المدنية زاهية زاهرة أو في الغرب «أي في اوروبا» حيث كانت البلاد في ادنى دركات الهمجية والتوحش

اما حالة اليهود في ذلك العهد فقد كانت شراً من حالة الوثنيين لان النصارى كانوا يثأرون لسيدنا عيسى منهم وهم يدعون انهم قتلوه فحدث عما وقع على رؤوسهم من جراء ذلك من المغارم والمظالم ولا حرج

هذا شيء قليل من كثير نرويه هنا تنبيهاً للاذهان الى ما فعله هؤلاء في محاربة المدنية والعمران وهم يدعون ان النصرانية ناصرة للمدنية دون الاسلام

وقد سبق واشرنا الى عمل قسطنطين في ملكه وما جرّ من الويلات على المسيحية خصوصاً وعلى المدنية عموماً بما شنه من الحروب المهلكة والمصائب المتعددة والويلات التي لا تحصى وقد اثارها باسم الدين . وكيف كانت المجادلات الدينية قاضية على العلم والتعصب الذي يحارب الفاسفة الى آخر ما اشرنا اليه

واذا تقرر هذا للعيان وهو لا يحتاج الى برهان والتاريخ قريب من كل

انسان فما هي المدنية التي أوجدتها النصرانية وعند ماكان المسيحيون لا يشتغلون بغير شؤون الدين وكان تعصبهم لما يذهبون يحملهم على اضطهاد بعضهم بعضاً والاعتداء على من لا يدين بدينهم الى درجة كثر معها سفك الدماء الذكية وخراب الآثار العمرانية حتى ثبت انهم هم الذين أخربوا مدرسة الاسكندرية وغيرها من المدارس الجامعة وأحرقوا المكتبة اليونانية في ذلك الثغر وغيرها من المكاتب الخ

واذا قارنا حالة النصرانية في هذه الاجيال الثلاثة وهي تعتبر صدر النصرانية لعهدها الملكي الجديد مع الاجيال الاسلامية الثلاث الاولى يتجلى امامنا الفرق الكبير بين اتباع الانجيل والقرآن بأجلى بيان على ماترى

الفصل الحادي عشر

الاسلام والمدنية في الجيل الاول الاسلامي

ان الاسلام على عهد الخلفاء الراشدين وهو الجيل الاول كان مؤسساً لحضارته وهو عهد توسع وفتح وكان فيه المسلمون بداءة في أحسن حالاتهم الدينية لانهم كانوا قد تلقوا قواعد دينهم من فم النبي نفسه صلى الله عليه وسلم

ومن المعلوم ان الاسلام ظهر في بيئة لا عهد لها في الحضارة والعمران بين أهل بداوة وخشونة فحضرهم ولطف أخلاقهم وجعلهم أهلاً ليسودوا الشعوب بعهد قصير جداً وشكل يعدّ من المعجزات

ومن أحسن ماجاء به الاسلام هو وضعه حداً للمجادلات الدينية فجعل

مجادلة أهل الكتاب غير جائزة الا بالتي هي أحسن ومتى ماخضع الذمي لسلطان المسلمين أمن على دينه كامنه على ماله وعرضه فلطف من هذه الوجهة الشر الذي كان قائماً في بلاد النصارى التي دخلت في حوذته فلم يرو التاريخ ان المسلمين أجبروا أحداً ممن في ذمتهم على الاسلام بل كانوا يكتفون بأخذ الجزية منهم وعلى هـذا استراحت البلاد من شرّ المنافسات الدينية وكان ذلك من دواعي تأييد العمران ونجم عنه ماهو صريح في التاريخ من تقدم المدنية في الشام بعد ان دانت للاسلام بوقت قصير وهكذا قل عن مصر وبلاد فارس وغيرها

وعلى عهد الخلفاء الامويين في الشام أصبحت دمشق عاصمتها عروس الشرق بغير جدال وكعبة العلماء والفقهاء والادباء وذوي الاعمال مما لو أردنا بيانه في هذا المقام لاحتجنا الى الفصول الطوال

ولما دالت الخلافة الاموية وقامت دولة بني العباس انقسمت الخلافة الاسلامية الى دولتين عظيمتين احداها في بغداد والاخرى في الاندلس وأزهرتا بالعلم والادب والمدنية بفضل الاسلام الذي أطلق العقول من تقييدها بينما كانت النصرانية تضرب على العقول وتسيطر على الافكار على ما يقول التاريخ . فكانت في ذلك العهد الكنيسة الشرقية وعاصمتها القسطنطينية تحظر على المسيحيين الفلسفة معلنة انها توطئة للكفر وتمنع عنهم تلقي العلوم والآداب بدعوى انها مخالفة للدين المسيحي بل كانت تحرم مطالعة الكتب الدينية المخالفة لمذهبها وتصادرها وتحرقها حتى انتهى تحريمها على الناس تلاوة التوراة والانجيل بدعوى الاكتفاء بما يتلى منها في الكنائس محتجة بصعوبة فهم العامة لها وقبل الاسلام كانت تفعل ذلك قهراً ثمّ جعلت

تفعله بسلطة القسيسين على العقول في البلاد التي دخلها الاسلام وكف عن الناس تلك السيطرة

اما في الغرب أي في أوروبا فكان الامر أشـد حيث كان البابا وات يرمون بالكفر والاشراك كل من ظهر عليه من المسيحيين الوقوف على شيء من مباديء العـلم والفلسفة وكان جزاؤه الحرم الكبير حيث يعيش مهجوراً من اخوانه حتى امرأته وأولاده وأحياناً كانوا يحكمون عليه بالقتل أو بالحبس على مايتراءى لاولئك الروساء وجنودهم الرهبان وهكذا كانت تحارب النصرانية أصول المدنية والعمران بكل سلاح

وحتى لا يرمينا القاريء الناقد بالتعصب أو التقصير كما نرمي نحن اعداء الاسلام الطاعنين عليه نقول . اننا لم نجد في الانجيل الذي بين ايدي النصارى أمراً يؤيد عمل هؤلاء الرهبان والقسيسين بمصادرة العلم كما لم نجد فيه ما يحض على العلم لانه كما سبق وقلنا كتاب زهد في العلم وغير العلم ولكن رجال الدين النصراني الذين ساعدتهم الظروف بمثل قسطنطين الذي جمع كلمتهم بمجمع نيقيا وحملهم على تأليه سيدنا عيسى عليه السلام وجعلهم خلفاءه اقاموا انفسهم بمقام الأله القادر على كل شيء «والعياذ بالله» فاستبدوا بالرعايا ومعلوم أن الاستبداد لايدوم الا اذا كان الناس من حول المستبد جهلاء اغبياء وعلى هذه القاعدة جعلوا يسيطرون على الافكار ويصادرون العلم لتدوم لهم تلك السطوة القاسية على القلوب والاجسام فتحكموا ما شاؤا ونهبوا ما شاؤا

وناهيك بهولاء الرهبان والقسيسين الذين كانوا يقنعون الشعب بالمقدرة على السعادتين في الدارين والشقاء فيهما كليهما وأن مبلغاً من المال يؤدى الى القسيس يفضي لمغفرة الذنوب والاثام بكلمة تخرج من فه ومن البديهي

لا يقبل هذا الا الاغبياء قصار العقول والمدارك

وما اكتفى البابا وات بهذا بل جعلوا يصدرون اوراقا يسمونها « اوراق الغفرانات » وكانت تباع هذه الاوراق للناس فيشترون بها سعادتهم الاخروية وتوصلوا بهذه الاوراق الى تحديد امتار بالسماء يبيعونها للنصارى كما كانت تباع الاراضي في ضواحي مصر منذ ثلاث سنوات فتأمل

هذه كانت حالة النصرانية في عصورها الماضية عند ما كان النصارى متدينين كما يشهد التاريخ فهل في الناس من يقول ان النصرانية اوجدت المدنية ودعمت الحضارة ؟

أما الاسلام فقد تنزه عن مثل ذلك فما وجد فيه من اتخذ لنفسه حق مغفرة الخطايا او بيع السماء ولذلك ما احتاج أئمته في صدر الاسلام الى المصادرة على العقول والافهام ولذلك نمت اندية العلم والادب في ربوعه على ما يفصله التاريخ عن الدولة العباسية في بغداد والدولة الاموية في الاندلس

الفصل الثانى عشر

﴿ الشورى في الاسلام ﴾

امتاز الاسلام عن النصرانية بضمه السياسة الى الدين فكان خلفاوه هم موزعو الاحكام الدينية والاحكام المدنية

ولم يجئ القرآن الشريف بتحديد وظيفة الخلفاء أو روساء الدين بل لم يجعل للنبي صلى الله عليه وسلم وظيفة غير «ابلاغ الرسالة» ولذلك لم يقم في الاسلام فيئة تستعين باسم الدين على ظلم المسلمين كما قام القسيسون في النصرانية وحصروا لانفسهم وظيفة غفر الخطايا التي سيطروا بها على المسيحيين ولذلك ظلّ الدين بمعزل عن التأثيرات المضرة بحياة المسلمين الاجتماعية وكف عنهم ايدي المشايخ والعلماء والمجتهدين

اما الذي اضرّ بهم وافضى الى تقهقرهم في عالمي العلم والمدنية فهو السياسة التي افضت الى انقسام المسلمين على انفسهم وفرقت كلمتهم خلافاً لمبدأ القرآن الشريف الذي جعلهم اخوة بلا ميزة والاحاديث النبوية المثبتة بان المسلم لا يفضل اخاه المسلم الا بالتقوى وعلى ذلك فيكون تقهقر المسلمين ناجما عن تركهم اصول دينهم لا من اتباعهم لها وهذا هو حجتنا على اعدائنا الاوروبيين الذين حكموا عن ظلم وجهل «بان ديننا الحنيف يغاير المدنية ويناقض العمران»

والعامل الاكبر الذي أضاع سلطان المسلمين هو اختلافهم على الخلافة فقد جاء الاسلام «بالشورى» وامتاز بنعمة الشورى عما عداه من الاديان الالهية والشرائع الموضوعة فهو على ما يعهد الجمهور اول حكم شوري ظهر في هذا الوجود

ولم نعهد قبل الاسـلام أمة من الامم حكمت نفسها بنفسها أو حكمها جمهور من عقلائها لا من طريق الدين ولا من طريق العلم فقد كان الحكم في عهد ملوك اليهود مطلقاً كما كان الكهنة من نسل هارون مسيطرين على الشعب وبعدهم قام الحاخامون وهم معاشر المجتهدين فتولوا القضاء بين الناس على ما ارادوا ثم راينا النصارى وهم ليسوا أهل حكم وانجيلهم يحزرهم من الدخول في معترك السياسة راينا فيه سيدنا عيسى عليه السلام « على ما روى عنه الانجيل » يقول لحواريه « مهما حللتم على الارض يكون محلولا ومهما ربطتموه يكون مربوطاً » فسلمهم في ذلك الحكم المطلق على الناس فكان خلفاؤهم القسيسون يحكمون بين الناس على ما يشاوون عند ما كانوا في مغرمهم وفوق ذلك فقد جاءهم المجتهد بولس « وكلامه عندهم بحكم الكلام المنزل » فايد فيهم الحكم المطلق أو حكومة الفرد حيث وأيناه يامر النصارى برسائله أن يخضعوا للملك لانه مولى من الله وان يد الله على قلبه الى آخر ما قال في هذا المعنى

ومثل اقوال بولس مع ما في الانجيل من التحزير من هذا العالم والاهتمام بشؤونه مما أطلق ايدي الملوك والقسيسين في الحكم الاستبدادي وايدلهم الاستبداد فهل هذا هو الذي يراه الافرنج ملائما للمدنية الحاضرة التي سودت الملوك على شعوبهم بالاستبداد وحكومة الفرد ؟

اما الاسلام فلم يكن كذلك قضى الاسـلام بالشورى حتى على النبي صلى الله عليه وسلم وهو كما نعلم ويعلم الجمهور رسول من عند الله بعثه سبحانه لهداية الناس فهو معصوم طبعاً عن الخطأ والزلل فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ومع ذلك كله قضى الله عليه أن يشاور اصحابه رضوان الله

عليهم اجمعين ليعلمهم الشورى فحق لنا أن نفأخر بهذا المبدأ الراقي العالمين ولا سيما بعد أن اجمع علماء العمران على أن الدول الاوربية لم تبلغ ما بلغته من المدنية والعلم والادب والاشتراع الى غير ذلك من ضروب الارتقاء الا « بالشورى » فهلا في الناس من يسمع هولاء المتحككين بالاسلام والمعتدين عليه والناسبين له الهمجية ظلما وعدوانا كلمة حق ويقول لهم بفصيح المقال انكم مدينون لنا في كل شيء حتى في « الشورى »

الفصل الثالث عشر

في الاسباب التي جعلت النصرانية سداً امام العلم والمدنية

اننا نكتب هذا الكتاب على ما يجيء لانه كاسمه « خواطر في الاسلام » وانا لا نكتبه الا حباً باحقاق الحق وازهاق الباطل رداً على قوم راوا انفسهم قد علوا اوج المدنية و راونا متقهقرين دونهم فرموا ديننا على جهل منهم بسبب هذا التقهقر كما نسبوا تقدمهم الى دينهم ويظهر لنا انهم على جهل ليس في ديننا الحنيف فقط بل وفي دينهم ايضاً ولذلك نرى أن نعرّفهم قواعد دينهم التي ارتكن عليها اجدادهم فابقتهم على همجيتهم حتى انتشلهم الاسلام وساروا بهم هذه الخطوات الواسعة فنقول

من البديهي الذي لا جدال فيه أنّ كلّ ذي دين ملزم بالحرص على نواعد دينه على ما في كتبه ومن شذّ بعضها شذّ في كلها والدين النصراني من هذا القبيل بل عندهم في انجيلهم نص صريح يحظر عليهم الاخلال بنقطة

واحـدة من تقط دينهم حيث جاء فيه « من حفظ الناموس كله واخل بواحده اخلّ به كله»

وعلى هذا فانّ النصراني الحقيقي ملزم بالايمان بانجيله وبكل ما فيه وبعد ذلك له الخيار ان يطبق عقله على ايمانه ليستريح قلبه

وهـذا الانجيل يثبت لسيدنا عيسى عليه السلام الخوارق والمعجزات ويجعلها دليلا على رسالته « بل وعلى الوهيتـه على ما يزعمون » ولم يكتف بهذا بل جعل الخوارق من شأن أرباب الايمان الى درجة « أن من كان له ايمان بقدر حبة الخردل لقال لهـذا الجبل انتقل من هنا الى هنا لا تنقل » ولهـذا جعلوا لـكبـار قسيسيهم ورهبانهم وحواريهم خوارق ومعجزات كالمعجزات التي رووها عن سيدنا عيسى عليه السلام وقد ملأوا بها كتبهم مما لو أردنا احصاءه وعده لاستغرق معنا المجلدات الـكبار

ومعروف من الجميع أن الخوارق والمعجزات هي ما خالف النواميس الطبيعية والشرائع الـكونية والاقرار بها لسيدنا عيسى ولتلاميذه من بعده ولمن خلفهم من الرهبـان والقسيسين من بعدهم يستلزم البساطة الـكلية بالمعرفة لاننا اذا سلمنا كما هو الواقع برسالة سيدنا عيسى عليه السلام يسهل علينا أن نسلم بمعجزاته ولكن ذلك لا يمكن أن يتعداه الى خلفائه وخلفائهم ولذلك جعل روساء دينهم ديدنهم محو آثار العلم وابقاء الناس في طور من البساطة يأمنون فيه أن يطالبوهم يوما باثبات ما يروون من الخوارق او الاتيان بمثلها أو يرميهم بقلة الايمان كما جرى فعلا عند ما تحررت الافـكار من نير روساء الـكنيسة حيث نرى عقلاء النصرانية مجمعين على تكذيب كل تلك الروايات أو على الاقل عدم العناية بها

ثم ان النصراني ملزم باطاعة رؤساء دينه وانهم قادرون في كل وقت على تثبيته في الدين أو اخراجه منه الا ترى الانجيل الذي بين أيديهم يروي عن سيدنا عيسى عليه السلام انه قال لبطرس وهو كبير الحواريين مانصه « أعطيك مفاتيح السماوات فكل ما تربطه على الارض يكون مربوطا في السماوات وكل ماتحله على الارض يكون محلولا في السماوات » وما اكتفوا بهذا بل عززوه بقول آخر لسيدنا عيسى عليه السلام في الانجيل أيضا وهو بنصه بصيغة الجمع موجهاً فيه الخطاب لعموم الحواريين « الحق أقول لكم كل ماتربطونه على الارض يكون مربوطا في السماء وكل ما تحلونه على الارض يكون محلولا في السماء » وعلى هذه القاعدة قام القسيسون وهم خلفاء الحواريين على الارض وتسلحوا بهاتين الآيتين وجعلوهما آلة في أيديهم للضغط على المؤمنين والسيطرة عليهم وكان لهم منها وثاقا شدوا به على العقول حيث كانوا يكفرون كل من تطمح نفسه الى طلب العلم فلا يشك بنفسه الا انه كافر وان كابر كان له من قومه وأهله وجفائهم له وبعدهم عنه مايزهده بالعلم واهله أوما يودي بحياته كما جرى لكثيرين من الاذكياء على ماأثبته التاريخ

والنصراني أيضاً ملزم بترك الدنيا وقد ذكرنا هذا اكثر من مرة في الجزء الاول من هذا الكتاب وما تقدم من فصول هذا الكتاب ونكتفي هنا بذكر بعض آيات الانجيل القاضية على كل تابع له بالتنزه عن الماليات والزهد فيها فقد رووا في انجيلهم عن سيدنا عيسى عليه السلام انه قال « لاتقدرون ان تخدموا الله والمال لذلك اقول لكم لاتهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ولا لاجسادكم بما تلبسون أليست الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل

من اللباس » ورووا عنه عليه السلام انه قال متتبعاً هذه الاية « ولكن اطلبوا ملكوت الله وبرّه وهذه كلها تزاد لكم » ورووا عنه أيضاً انه قال « فلا تهتموا للغد لان الغد يهتم بما لنفسه يكفي اليوم شره » ورووا عنه أيضا انه قال : « الحق أقول لكم انه يعسر ان يدخل غني ملكوت السماوات وأقول لكم أيضاً ان مرور جمل (وهو الحبل) من ثقب ابرة أيسر من ان يدخل غني ملكوت الله » وقال أيضاً . « لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم ولا زاداً للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا » الخ

فاذا كان النصراني ملزما بالخضوع لهذه التعاليم والعمل بموجبها فاي مدنية وحضارة ترجى منه ؟؟ وكيف يقوى أن يدعي ان دينه دين الحضارة والمدنية ؟؟ وهل يليق به أن يطعن على دين غيره وينسب اليه محاربة كل رقي وعمران ؟؟

وسبق لنا فذكرنا أن رسولهم بولس كان يحضهم على الرهبانية وقلنا هنالك ان النصارى لو اتبعوا مشورته لبادوا عن آخرهم ثمّ رأينا في انجيلهم نصاً صريحا يؤيد قول بولسهم فقد رووا عن سيدنا عيسى عليه السلام انه قال : « ويوجد خصيان خصوا انفسهم لاجل ملكوت السماوات من استطاع ان يقبل فليقبل » فقل لي بحقي عليك ايها القاري الكريم هل هذه النصيحة من قواعد الحضارة القائمة بنمو النسل لما يترتب على نمو النسل من قيام الممالك؟ وهل يرجى نفع من انسان لا اولاد له للهيئة الاجتماعية ؟ وعدا ذلك هل البتولية الا تعطيل لاحدى ألوظائف الاولية في الحيوان والنبات ؟ الا ترى النبات يبذر بذوره لحفظ نوعه ؟ الا ترى الحيوان من اصل غريزته العمل على حفظ نوعه ؟ وفوق ذلك اما روى سيدنا موسى عليه السلام ان الله سبحانه عند ما خلق

جدنا آدم وجدتنا حواء عليهما السلام امرهما أن يتزوجا وينميا ويملأا الارض ولكن كل هـذا لم يره على ما اظن اولئك الطاعنون في الاسـلام الذين يرمونه بالهمجية

فلهذه الاسباب الجوهرية للايمان عنـد النصارى «لانها من مباديهم الاساسية» لا نعجب اذا كان تاريخهم مرفوقاً بالهمجية الى ان جازوا عنه وتركوه عنـدما تسنى لهم بواسطـة مسلمي الاندلس الوقوف على العـلوم والآداب والفلسفة كما انهم بالرغم عن تمسكهم بدينهم في اجيالهم التي يدعونها هم انفسهم (بالمظلمة) لم يعملوا بقواعد دينهم الاما اوقفهم العمل به او ما قدروا على العمل به فقـد كانوا يخافون بطش روسائهم الدينيين فيخضعون لهم بعدم تلقي العلم لان اولئك الروساء كانوا اصحاب حول وطول فيستعملون القوة في هـذا المنع وهي قوة الحرم او البطش الفعلي بالمخالف

وكانوا يؤمنون بكل ما يرويه القسيسون لهم ببساطتهم المعروفة طلباً للسعادة الخالدة و بصرف النظر عما يروى لهم هل هو مطابق العقل السليم أم لا ؟ ؟

على انهم كانوا بفطرتهم الطبيعية غير قادرين على التسليم بمبدأ الزهد في الدنيا وما فيها الى درجة أن لا يهتم الواحد منهم بغده ولا يبعد أن يكون قد جرب بعضهم ذلك فماتوا جوعاً وعرياً لان مبدأ تزاحم البقـاء لا يشفق ولا يرحم ولو كان الانسان في وسط مسيحي صرف

وكذلك لم يصغوا لنصيحة الانجيل وبولس بالرهبنة لان فطرتهم الطبيعية كانت تضطرهم الى الزواج على أن بعضهم قد ترهبوا فعلا . ولـكن ظهر من اكثر اولئك الرهبان ما نكتفي بالاشارة اليـه ونستحي من ذكره وانباء رهبانهم في كل عصر تفصح بان العطار لا يصلح ما افسد الدهر

الفصل الرابع عشر

في بساطة الاسلام وخلوه من كل ما تقدم

ان الدين الاسلامي الحنيف هو دين الفطرة والبساطة فليس فيه ما يخالف العقل أو يخالف الفطرة واذا وجد شيء من ذلك في بعض فرقه فهو دخيل على الاسلام وليس منه في شيء

فهذا القرآن الشريف الذى مسكه غلادستون بيمناه وقال في مجلس النواب « لا مدنية مع القرآن » تناوله بامعان وابحث فيه ملياً وبعين منزهة عن الغرض تجده لا يطلب من المسلم الا امراً واحداً بسيطاً اجمعت عليه كل الامم والشعوب وهو « الاعتقاد بوجود الله وانه واحد احد » وهذا هو كل الاسلام وما عداه فروع له وجدت لمصلحة الناس انفسهم

ووجود الله لم تختلف فيه امة وان انكره افراد ملحدون ولكن الامم ما كانت تحسن التوحيد لجهلها فاشركت معه سواه وبعضها جزأته وهي تريد تجزءة قواه الا اليهود فقد كانوا على هدى من التوحيد والنصارى وقد جاءهم سيدنا عيسى يدعوهم الى الله وحده وكان في غاية المسكنة يصلي لالهه ويطلب معونته ويحيي الموتى ويشفي المرضى بامره ومع ذلك ابوا الا ان يشركوه معه الى آخر ماسبق ونوهنا عنه في الجزء الاول

وقد بينا في ذلك الجزء الحكمة التي أرسل الله سبحانه فيها نبيه محمد الهادي صلى الله ليه وسلم داعياً للتوحيد وهي بعدان وقع النصارى في الاشراك

أما ما عدا التوحيد فهناك فروع كما قلنا وهي تنحصر في الاعتقاد بنبوة نبينا الهادي العربي صلى الله عليه وسلم والاعتقاد بنبوته لا ينافي العقل لان

المسلمين يعتقدون به بشيراً ونزيراً ورسولا وهـذا يسلم به كل من درس حالة العرب في زمن النبوة والتعاليم التي جاء بها الرسول الامـين صلى الله عليه وسلم والتأثير الذي اثره على ذلك الوسط الخشن فلينه واخرج منه ابطالا ظهر من بدائع آثارهم ما ظهر على ما هو معروف

ثمّ أن المسلمين لا يلتزمون بعبادة نبيهم صلى الله عليه وسـلم ولا أن يصلوا له ولا أن يؤلهوه حاشا لله ذلك وغاية ما هنالك يكرمونه تكريما يليق به وقد اصطفاه الله للهدى فهل ينكر ذلك عاقل أو يحسبه خارقا للعادة يجب التسليم به بغير تفكر ؟؟

ومن هذا وذاك ترى بساطة هذا الدين الحنيف وميزته عما سواه من سائر الاديان

ومن تلك الفروع المعدودة واجبة للايمان الصلاة وهي التعبد لله والشكر له والصلاة مما اجمع على وجوبها كل ذي دين فلا سبيل للبحث فيها ولعمري أن الصلاة فضلا عما فيها من واجب الشكر للاله الخالق جلّ جلاله نبعث في المؤمن نعمة الاستعداد للائتمار باوامره تعالى والانتهاء بنواهيه وبها يصبح الناس عباداً لله حقيقيين

ومنها الصوم وهو صوم شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن وهذا أيضاً لا يحتاج الى ضغط على العقل لقبوله لان الصوم مما يفرغ الفكر للتعبـد في شهر افتقد فيه الله الناس بهدايته فضلا عما في الصوم من حسن تأثير الجوع

ومنها الذكاة وهي عمل انساني محض يراد فيه مساعدة الغني للفقير ويعمل بموجبها كل ذي شفقة وحنان على بني الانسان سواء كان مؤمناً اوكافراً

ومنها الحج لبيت الله الحرام وهو حكمة الحكم والمراد به اجتماع وفود

المسلمين مرة في السنة في وقت واحد في صعيد واحد ليتعارفوا ويتآلفوا وتجتمع كلمتهم فهل من ينكر فائدة ذلك واحد من ذوي المدارك والافهام ؟

هذا هو الدين الحنيف كله فمن وحد الله واقرّ برسالة رسوله وصلى شكراً لله وصام رمضان وذكى ماله وحج لبيت الله الحرام فهو مسلم موحد وجبت له الجنة لانه ماعمل ذلك الا وهو صالح طائع لله

ومن البداهة ان الذي يعمل هذا كله يكون طيعاً مطيعاً لله في كل ما حرّمه وحلله وما حرّم الا الضار بالانسانية وما حلل الا النافع لها من غير ضغط على الافكار أو محاربة للفطرة البشرية

واذا تقرر لدينا هـذا وهو معروف عن ديننا الحنيف وظاهر في كتابنا الشريف تجد بوناً شاسعاً بيننا وبين النصارى فلا نحن ملزمون بالاعتقاد بما لا ينطبق على العقل السليم ولا نحن ملزمون بالخضوع لرجال ديننا ولا نحن ملزمون بالزهد بالدنيا وهي خلقت لنا ولا نحن ملزمون بالترهب ليعوث رهباننا في الارض فساداً وعلى هذا فنحن بقوة ديننا عندنا كل الاستعداد لنمو العلم والحضارة وأن تماهلنا في ذلك وتأخرنا فيه فما هو من تأثير ديننا الحنيف وانما هو من تركنا مبادي ديننا واستسلامنا الى اهوائنا او الى الذين استبدوا علينا من روسائنا او الى انقسامنا على انفسنا بفواعل سياسية الى غير ذلك من الادواء التي انتابت جثمان الجامعه الاسلامية



الفصل الخامس عشر

في عدم وجود سلطة دينية في الاسلام

أن المدقق في تاريخ الحضارة يتبين له جلياً استبداد رجال الدين في الناس وسيطرتهم على الناس باسم الدين وقد كان ذلك في الوثنية كما كان في اليهودية والنصرانية

فكهنة الوثنيين كانوا مسيطرين على العقول والافكار ومسيرين الشعوب حتى الملوك على مايشاؤون وكذلك كان الحال في كهنة اليهود وحاخاميهم وانتقلت تلك السلطة المستبدة بعد ذلك الى قسيسي النصرانية ورهبانهم بشكل أشدّ ظهرت تأثيراته السيئة باجلى بيان في تواريخ النصرانية في أجيالهم الغابرة الى أن أهملهم الشعب وكفروا بهم ورموهم من حالق مجدهم عند ما تعلموا وعرفوا ماينفعهم وما يضرّهم

وكما ان الاسلام جاء بالشورى فقلب كيان الاستبداد فكذلك قد قلب كيان استبداد رجال الدين وجعل المسلم المؤمن حراً لا مسيطر على مافي قلبه من الايمان وليس له من يغفر خطاياه أو من يمسكها عليه غير الله جلّ وعلا هو الغفار الرحيم وهي النعمة التي حررت المسلمين من كل رقّ وجعلتهم أحراراً في الايمان

ولتأييد هذا المبدأ وصف الله سبحانه في كتابه العزيز بـل كل شيء وظيفة نبيه فقال تبارك وتعالى « فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر» فاذ كان النبي وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بمسيطر على المسلمين فمن ايجرأ من بعده على السيطرة ؟ أو يدعي السلطة على نفوس المؤمنين ؟

ثمّ ساوى الله سبحانه بين المسلمين فلم يفضل ملكا على صعلوك ولا كبيراً على صغير ولا عالماً على جاهل فقال. «وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» ومعلوم ان التواصي هو التكافل بحيث يكون المسلم للمسلم وصياً

ثمّ بين الله سبحانه وظيفة المجتهدين والعلماء في الامة بصريح المقال فقال . « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » وهذه هي وظيفة رجال الدين في الاسلام لا يجوز لهم ان يتعدوها فهم يفتون على المنابر ويدعون المسلمين لعمل الخير ويحضونهم على المعروف وينهونهم عن المنكر وبعد ذلك اذا نزلوا عن منابرهم اصبحوا كسائر المسلمين اذا سئلوا أجابوا وان لم يسألوا سكتوا

فهذا يا أعداء الاسلام مبدأ الاسلام فما الذي يمنعهم عن التقدم والارتقاء في سبيل الحضارة ومدارج العمران ؟ ؛ هل عندهم من يتتبع مساويهم ويفتش قلوبهم ويتجسس أحوالهم وينهاهم عن العلم بدعوى منافاته للدين ؛ كلا ثم كلا انهم لا يعترفون لاحد بسلطة على ايمانهم وما هم بمجبرين على تلقي الايمان عن عالم أو مجتهد بل مرجعهم الوحيد القرآن والسنة وفيهما الهدى لمن رام ان يكون بنعمة الله مسلما

الفصل السادس عشر

في وظيفة الخليفة

سبق لنا فذكرنا شيئاً عن الخلافة في الجزء الاول من هذا الكتاب ونرى اننا محتاجون ان نبين هنا وظيفة الخليفة وانها ليست دينية بل هي سياسية محضاً فنقول .

ان خليفة النصارى ويسمونه البابا هو عندهم مهبط الوحي وقد عصموه من الخطأ وأناطوا به تفسير الانجيل او الاقرار على الصحيح من التفاسير كما يصغون لكلما يبدل ويغير من أصول دينهم باسلطان المعطى له من سيدنا عيسى عليه السلام وهو سلطان الحل والربط كما تقدم ويعتبرون أوامره واجبة الطاعة بحكم الكلام المنزل

أما الخليفة عند المسلمين فليس كذلك فلا هو بالمعصوم ولا هو بمهبط الوحي ولا هو بعلم في الدين ولا هو مرجع للايمان ولا يستطيع ان يوسع أو يضيق ماجاء به القرآن الحكيم ولا من حقه الاستئثار بتفسيره او بيان اوامره ونواهيه كلا ليس كل ذلك من وظيفة خليفة المسلمين وغاية ما اشترطوا عليه ان يكون عالما مجتهداً وذلك ان الاسلام دين وشرع فما كان ذا علاقة بالدين فهو بين المسلم والهه وما كان ذا علاقة بالشرع فهو للفصل بين الناس وانصافهم وراحتهم وبما ان الخليفة هو حاكم المسلمين فهو مضطر بطبيعة الحال ان يكون عالماً مجتهداً ليقوى على الفصل بين الناس وبما أنزل الله حتى لا يكون ظلاما للعبيد لان العدل من أقدس مبادي الاسلام

ولما كان خليفة الاسلام ملكا مدنيا محضا بكل معنى الكلمة أنيط

بالامة اختياره هذا في الاصل كما ترك النبي صلى الله عليه وسلم أمته بغير استخلاف وكما كان عند مااستخلف الناس أبا بكر وعثمان رضي الله عنهما والمسلمون غير مضطرين لطاعة الخليفة الا اذا بايعوه وبعد بيعته لا يلزمون بطاعته الا ان أطاع لله اما اذا خالف اوامر الله فهم في حلّ من بيعته وهذا صريح في كتب المسلمين وقد عملوا به في صدر الاسلام حيث رأينا الامام عمر رضي الله عنه يخطب في الناس فيقول «ياقوم من رأى فيّ اعوجاجا فليقومه» فناداه صعلوك من العرب قائلا: والله يا أمير المؤمنين لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا فقال عمر: الحمد لله الذي اوجد في المسلمين من يقوّم اعوجاج الخليفة سيفه» وكذلك قول الامام أبي بكر رضي الله عنه في خطاب له «يا قوم ان زغت فقوموني» فهل سمع أحد عن أحد الباباوات قولا كهذا؟ لا والله بل رأينا في التاريخ الكثيرين منهم قد زغوا عن الدين وعاثوا فسادا في الادب ومع ذلك كان النصارى يطيعونهم ويخضعون لسطوتهم لاعتقادهم فيهم العصمة عن الذلل والخطأ

ولربما اعترض علينا معترض بقوله ان الباباوات عند فيئة من النصارى وليس عند جميعهم وهناك الارذثوكس ومنهم الاقباط وهم لا يعرفون سلطة للباباوات ولا يقرون لهم بعصمة وكذلك الحال عند البروتسطان وعلى ذلك نجيب:

ان البروتسطان فعلا لا يخضعون للباباوات وسلطة رجال الدين عندهم أخف من غيرهم من فيئات النصرانية وبالاجمال هم أرقى النصارى من هذا القبيل ولكنهم هم أبناء الامس وقد تركوا الباباوات من عهد قريب وكان انشقاقهم هذا اول خطوة في سبيل الرقي الاوروبي على ما هو مشهور ومع ذلك فهم ايضاً مستسلمون الى رؤسائهم الدينيين خاضعون لتفاسيرهم وبياناتهم

ولرؤساء البروتسطان في بعض المذاهب البروتسطانية سلطة على النفوس كالتي لرؤساء الكاثوليك أو مايقرب منها

اما الارثوذكس فهم كالكاثوليك والفرق بين الفئتين هو ان باب الاجتهاد عند الأرثوذكس بين قد وقل وجدوا على تفاسير وسائهم في الدين منذ ألف عام أو اقل من ذلك خلافاً للكاثوليك الذين عندهم باب الاجتهاد مفتوح بسلطة باباواتهم المعصومين من الغلط فيما يعلمون ويفسرون (كذا)

وكيفما كان الحال فاننا نرى أن لاغنى للنصارى عن أقوال المفسرين لحلّ المشاكل الموجودة في انجيلهم الذي بين أيديهم في الوقت الحاضر ليوفقوا بين هذه المدنية وما تتطلبه من الرغبة فيها وبين زهد كتابهم كما يحتاجون الى مفسرين يهذبون تلك الاوامر الصارمة في الزواج والطلاق وغيرذلك من الامور التي لا يتفق كتابهم فيها مع حضارتهم ولعلهم يفعلون ذلك بعدان رأوا الناس في أوروبا وهم أرقى فيئات النصرانية أوجدوا لانفسهم شريعة طلاق كما ان للكثيرين منهم عدة زوجات غير شرعيات مع أزواجهم الشرعية واذا لم يلاف رؤساء النصرانية هذا الخلل ضعفت النصرانية ضعفاً ظاهراً من قلوب القوم

الفصل السابع عشر

في الفصل بين السلطتين الدينية والسياسية

في النصرانية ومزجهما في الاسلام

مما يتمسك به أعداء الاسلام من علماء النصرانية على صلاحية دينهم للحضارة وعدم صلاحية الاسلام لها هو مزج السلطتين الدينية والسياسية في الاسلام وفصلهما في النصرانية

واذا تمعن متمعن في هذا الفصل وذلك المزج وكان قلبه سليما من الغرض « والغرض مرض » لوجد ان ما من تأثير لهما على الحضارة الا بتأثير الدين نفسه والسلطة التي أعطاها لرجاله

ان النصرانية فصلت الملك عن الدين تماماً فقال سيدنا عيسى عليه السلام « ان مملكتي ليست من هذا العالم » وقوله أيضاً « اعطوا مالله لله وما ليقصر ليقصر » وقرر ذلك قديسهم بولس بقوله « فلتخضع كل نفس للسلطة فان كل سلطة من الله » وله أقوال أخرى بهذا المعنى مما لا فائدة لذكره

وهكذا وضع سيدنا عيسى عليه السلام قاعدة الفصل بين الدين والدنيا تقريراً لخطته الدينية التي أسسها على الزهد في الدنيا وكلما فيها ولكن مع ذلك كله لقد كان لرجال الدين بموذ « الحل والربط » سلطان على الملوك المسيحيين أنفسهم فكانوا عبدانا لروسا دينهم في تلك العصور الغابرة فكان الملك الذي لايخضع لرجال الدين يحرمونه فلا يلبث ان يسقط من حالق مجده وهكذا كان الملوك النصارى ألعوبة في أيدي القسيسين يسيطرون على عباد الله ويضغطون عليهم ولولا ذلك لما رأينا تلك المظالم والمغارم في تلك

الاضطهادات التي ثارت ضد اليهود والمسلمين والوثنيين

وينتج معنا اذن ان هذا الفصل هو صوري بل كان ضرره على المسيحية كضرر التصاق السلطتين بلا فارق لان ما حيلة ملك يحكم ـا خاضعين كل الخضوع لرؤسائهم الدينيين ؛ وهل في استطاعة مثل هذا ان يقاوم الاوامر التي تصدر من السلطة الدينية التي هو نفسه خاضع لها ؟

والاغرب من ذلك جميعه ان القسيسين طمحوا الى السلطة المدنية وقبضوا عليها رغماً عن صراحة نصوص الانجيل بفصل السلطتين فاصبح الباباوات في القرن العاشر المسيحي ملوكا على رومية مدنيين وما زالوا كذلك الى سنة ١٨٧٠ مسيحية حيث أخذت السلطة منهم قهراً وحجر عليهم في سرايهم المعروفة باسم الفاتكان[١] على ان الباباوات ما زلوا متمسكين بملكهم المغصوب ولا زال عندهم جنود ووزراء يعطون النياشين والرتب والالقاب الى الناس لقاء جعل مخصوص يتقاضونه باسم الكنيسة ومن هذ يتضح للقارئ الكريم كيف ان النصارى حتى رؤسائهم الدينيين قد داسوا قواعد دينهم عند ما رأوا سبيلا لدوسها وما تجرأوا على ذلك الا لان في سلطانهم ان يحللوا ما يشاؤون ويحرموا ما يشاؤون بسلطان « الحل والربط » المعطى لهم

---

(١) وقد تسنى لنا في سياحتنا في هذ العام في أوروبا زيارة حضرة البابا فقابلناه مقابلة خصوصية وكان ذلك في مكتبته في الفاتيكان باذن مخصوص لا يتاح لاي كان ولقينا منه كل رعاية والتفات وابدى لنا ميله الخصوصي الى الشرقيين ورأينا من العظمة التي يتخذها لنفسه ما لا انطباق له مع صراحة الانجيل القاضي بالزهد أما الفاتيكان فهو سراي واسعة جداً جداً تكاد تكون مدينة تامة بنفسها وفيها من الكنوز والتحف ما لا يقدر بثمن وهي مجموع هدايا النصارى التي تواردت ولا تزال تتوارد على الباباوات بكثرة

اما المسلمون فقد جمع الاسلام عندهم بين سلطتي الدين والدنيا فجعل الخليفة حاكما مدنيا ولكن سبق وذكرنا انه ليس له من السلطة الدينية شيء وما هو في الحقيقة الا جامع كلمة المسلمين لدفع المغارم وجرّ المغانم باسم الدين ومنفذ شريعة الرسول الامين صلى الله عليه وسلم

الفصل الثامن عشر

في ان النصرانية دين حرب
والاسلامية دين سلام

يقول أعداء الاسلام ان النصرانية دين سلام والسلام أساس المدنيــة والاسلام دين حرب والحرب مهدم لها ونحن نخالفهم فيما يقولون ليس بمجرد الكلام بل بالحجة والبرهان فنقول :

ان نشأة الاسلام كانت أعجوبة من العجائب الدالة على صدق الرسالة التي جاء بها النبي الهادي الامين صلى الله عليه وسلم فلما ظهر بدعوته الناس لعبادة الله الواحد قام الكافرون لمحاربته فهاجر أولا وثانيا الى ان شدّ الله سبحانه ازره فجعل يحارب محاربيه ونصره الله عليهم

والمتأمل في الآيات المنزلة في هــذا الجهاد الديني وفي الحروب النبوية على صاحبها أزكى ســلام واجمل تحية يتضح له جليا ان ذلك الجهاد لم يكن المقصود منه اكراه الناس على الدين بل منع اعتداء المعتدين عنه وهو حق من حقوق كل صاحب دعوة اذ كانت القاعدة الجوهرية للمدنية اطلاق الحرية للناس في كل شيء ولاسيما في اعتقاداتهم كما هو مقرر فبالحق الذي هاجم فيه الكفار الرسول الامين صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأنصاره صلى الله عليه وسلم

أجمعين بذلك الحق نفسه دافع الرسول وأصحابه وأنصاره عن بيضة الاسلام وأيدهم الله سبحانه ونصرهم على الكافرين « وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله »

ثمّ لما ساد الاسلام على جزيرة العرب وأصبح المسلمون أصحاب حول وطول انطلقوا للفتح والجهاد لا لاكراه الناس على الدين كما يتبادر الى اذهان محاربي الاسلام بل بالعكس لخدمة المدنية وتعميم العدالة وابلاغ كلمة الله للناس بالهدى والانذار بالتي هي أحسن

والذي يثبت لك هذا جلياً هو مراجعة تاريخ الفتوحات الاسلامية فان المسلمين عندما تغلبوا على سكان جزيرة العرب لم يكرهوا الناس على الاسلام حاشا لله ذلك بل دعوهم اليه بالحسنى . ثمّ قضت الحكمة الالهية بعد ان دخل الناس في دين الله أفواجاً ان تكون الجزيرة مهداً للاسلام فلا يكون فيها دين آخر وقام المسلمون لتحقيق ذلك لا بالشدة بل باللين حسب القاعدة التي وضعها لهم قرآنهم فجعلوا يخيرون الخاضعين لهم من الكفار واليهود والنصارى في جزيرة العرب بين الايمان والجلاء فآمن من آمن وارتحل من ارتحل وكان الذين يرتحلون من غير المسلمين عن جزيرة العرب يشاهدون من المسلمين كل معاونة واسعاف فيشترون منهم أملاكهم ويعدون لهم الاراضي التي يسكنونها خارج الجزيرة من أملاكهم

هذا كل ما فعلوه في جزيرة العرب واما ما فعلوه خارج الجزيرة من الممالك التي فتحوها فهو ما تلألأ فيه العدل فقد دخل المسلمون بلاد فارس والروم فادخلوهم في ذمتهم وقاموا بحمايتهم ولم ياخذوا منهم غير الجزية ليستعينوا بها على حمايتهم من الطواري وما عدا ذلك فلم يثبت عن عهد تلك الفتوحات أن المسلمين اجبروا الناس على الاسلام أو اغتصبوا كنائس النصارى

اومعابدالوثنيين أو اموالهم أو سبوا نساءهم أو غير ذلك وقد تناهى المسلمون في اظهار مكارم اخلاقهم الى حد اعفوا به الرهبان والقسيسين من الجزية وكانوا يسهلون عليهم القيام بعباداتهم وهذا التاريخ شاهد عدل على ما نقول

ولم يفعل المسلمون كل ذلك الا خضوعاً لقرآنهم الشريف الذي يأمرهم بالذميين خيراً حيث قال الله سبحانه « لهم مالكم وعليهم ما عليكم » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من آذى ذمياً فليس منا » وفوق ذلك فان وصاية النبي صلى الله عليه وسلم بالذميين مشهورة ومعروفة :

ولا يظنن ظان أن هذه الاوامر الالهية والرسولية قد ذهبت ادراج الرياح كلا فانها حفظت في صدور المسلمين وعملوا بها تماماً في صدر الاسلام فان الامام عمر رضي الله عنه وارضاه عند ما سلمت له مدينة اورشليم بيت المقدس خرج البطريرك وهو رئيس القسيسين للقائه ودخل به المدينة واول مقام دخلوه هو الكنيسة الكبرى حيث مدفن سيدنا عيسى عليه السلام على ما يزعمون قال المؤرخون وكان الامام عمر يتطلف بالبطريرك ويؤانسه وهو يتجول في البيعة الى أن بلغت الشمس الزوال وحانت صلاة الظهر فطلب من البطريرك الخروج خارجاً ليصلي فقال له البطريرك ولمَ لا تصلي ههنا . قال أن الصلاة عندنا تجوز في كل مكان لان الله سبحانه حاضر في كل مكان ولكن اخاف ان اصلي ههنا فيأتي المسلمون من بعدي ويطالبونك بالكنيسة قائلين أن عمراً صلى بها . فانظر الى هذا العدل وتلك الحكمة وتنزل معي بالمبادي الاسلامية الشريفة التي تطلق حرية الاديان وتصون معابد الناس وكنائسهم من كل اعتداء اذا ما سالموا المسلمين ولم يكونوا لهم محاربين فهل وجد مثل ذلك في تاريخ النصارى ؟ بل هل ابقى النصارى للمسلمين

جامعاً في الاندلس ؟ ولعمري كيف يبقون لهم جامعاً يعبدون فيه الاله الواحد وهم لم يبقوا في تلك البلاد دياراً . وكما عامل النصارى المسلمين بالشدة عاملوا غيرهم من اليهود والوثنيين بل اغتصبوا كنائس بعضهم بعضاً على ما هو صريح في التاريخ

الفصل التاسع عشر

في أن المسلمين احترموا العلم والعلماء

من المعلوم أن العلم هو اساس المدنية ولولاه لما بلغت هذا الشأو البعيد فما تهذبت الاخلاق الا بالعلم وما ازهرت الحضارة الا بالعلم وكلما نشاهده من رقي وعمران في اوروبا هو نتيجة من نتائج العلم

وذكرنا آنفا أن النصرانية اضطهدت العلم والعلماء لانها حسبت ان العلم يقوّض أهم اصولها وحاربت المتعلمين بكل قواها عندما كان امر الناس موكول الى الرؤساء الدينيين اما الاسلام فلم يكن في جوهره ما يدعوه الى محاربة العلم والعلماء لان اصوله معقولة لاتنافي العلم في وجه من الوجوه

نعم ان المسلمين في صدر الاسلام كانوا مشتغلين في توسيع مالكهم فلم يعبأوا بما سوى ذلك الا انهم عندما بلغوا سعة السلطان ونالوا من الملك اعظم نصيب توجهت انظارهم الى العلم فمدوا ايديهم اليه وساعدوا اهله من مسلمين وغير مسلمين كما نرى صراحة في تاريخ الخلافة العباسية في بغداد والخلافة الاموية في الاندلس

وهنا نحدّث القاري الكريم ببعض حوادث الخلفاء العباسيين مع العلماء ومنها يقف على مبلغ اهتمامهم بالعلم والعلماء ثمّ نأتي ببعض نوادر البابوات

مع العلماء الذين ظهروا في عصورهم المظلمة عند ما كان أمر الناس موكولا اليهم وبضدها تتميز الاشياء

ان المسلمين عند ما انتهوا من الفتح ودانت لهم البلاد رأوا ان لا بدّ لهم من العلم فجعلوا يعتنون بالعلماء الداخلين تحت أمرتهم وكانوا يشجعونهم بالاموال ويعلون مكانتهم حتي على الوزراء فتأسست المدارس في كل بلاد الخلافة وحبست عليها الاحباس كفالة لدوامها وكانت هاتيك المدارس تهذب الالوف من الطلبة وحسبنا اذا قلنا ان منهم أولئك العلماء الاعلام المجتهدين الذين يهتدي بهديهم أهل السنة وغيرهم حتى الآن ومنهم المؤرخون الذين دونوا حوادث الفتوحات ومنهم علماء الهيئة الذين أحصوا النجوم ووقفوا على أسرار حركات الافلاك ومنهم الرياضيون ولا سيما علماء الجبر الذين لم يستطع الافرنج ان يزيدوا حتى اليوم على مادونه المسلمون حرفاً واحداً الخ

وكان الخلفاء العباسيون حسب تعاليم القرآن الشريف لا يميزون بين العالم المسلم والعالم الغير المسلم فحظيت طائفة من علماء النصارى واليهود على مكانة عالية لديهم وكانوا ذوي ادلال عليهم

ومن هؤلاء جورجيس بن بختيشوع الجنديسابوري وكان هذا عالماً وطبيباً اتصل بالخليفة المنصور وحاز لديه على أعلى مكان وكان الخليفة يقدمه على وزرائه ويعتني براحته عناية فائقة اكراما للعلم ومن جملة البراهين على عناية الخليفة بهذا الطبيب العالم انه أرسل له ثلاث جوار حسان لانه كان ذا زوجة عجوز لا تشتهى فردهنّ هذا شاكراً وقال للخليفة « ان ديني لا يسمح لي بان أتزوج غير زوجتي مادامت حية » فلم يتكدر الخليفة من هذا الردّ بل ازداد في اكرامه وما زال جورجيس في خدمة المنصور الى

شيخوخته فعند ما مرض مرض الموت عرض عليه المنصور الاسلام ليدخل الجنة فاجابه «رضيت ان اكون مع آبائي في جنة أو نار» فتبسم المنصور بما في قلبه من روح التساهل الاسلامي وقال له اذن ماذا تطلب مني ؟؟ قال ان تسرحني الى بلدي فادفن بتربة آبائي فاصدر الخليفة أمره بنقله الى بلده وأوصى خدامه ان يعتنوا به وانه اذا مات في الطريق ينقلوه الى موطنه ويدفنوه بالاكرام في تربة آبائه . نقول هكذا كان خلفاء الاسلام يعاملون العلماء وهم في اوج مجدهم ومكانتهم

ومن حوادث الخليفة المنصور أيضاً انه قرّب منه عيسى بن شهلاثا تلميذ جورجيس المتقدم ذكره وأعلى مكانته حسب عادته في محاسنة العلماء اما عيسى فجعل يؤذي القسس والبطاركة ويتهددهم بماله من المكانة العالية عند الخليفة فلما بلغ المنصور ذلك طرده من خدمته اكراماً واحتراماً لرجال الدين المسيحي الداخلين في ذمته فتأمل مبلغ هذا العدل وهذا التساهل مع الذميين الذين لايدينون في الاسلام وقل لي بحقك هل وجد مثل هذا في تاريخ النصارى في عصر من عصورهم التى كان الدين سائداً فيها

وكان المنصور كثير الشغف بالعلوم وكان عنده من المنجمين علماء الهيئة نوبخت وابنه أبو سهل وكانا على مذهب الفرس يعبدان الشمس ومع ذلك كان لهما منزلة عالية عند الخليفة يحسدان عليها

وكان عند المهدي عالم لبناني جليل اسمه تيوفيل بن توما النصراني وكان على مذهب الموارنة وكان ينال من عطايا المهدي ومنحه الشيء الكثير وبهذه المعاونة تمكن من تأليف تاريخه الجليل وترجمة ايلياذة هوميروس الى اللغة السريانية ونسخة هذه الترجمه لا تزال محفوظة في خزائن الكتب

الاوربية الى هذا العهد

وممن خدم الرشيد من العلماء وفازوا برضاه بختيشوع الطبيب النصراني وولده وكانا يترجمان كتب الطب والفلسفة الى العربية بمساعدة الرشيد الادبية والمادية

واتصل بالرشيد أيضاً يوحنا بن ماسويه النصراني السرياني وكان طبيباً وفيلسوفا وعالماً وولاه الرشيد أمر ترجمة الكتب القديمة من طبية وغيرها وظلّ هذا في خدمة الخلفاء الى عهد المتوكل وكان يعقد في داره مجلساً للدرس يحضره كثيرون من التلامذة يتذاكرون فيه بكل أنواع العلوم والاداب

ومن حوادث يوحنا هذا مع الرشيد ان بعض حساد يوحنا وشوا به الى الرشيد بانه يريد ان يدسّ لهُ السمّ فأراد الرشيد ان يختبر صدقه وامانته فاستدعاه يوماً اليهِ وقال له أي يوحنا لقد قربتك من مجلسي وأعليت مكانتك على وزرائي قال ذلك فضل من أمير المؤمنين أشكره عليهِ قال الخليفة على انك وأنت من أعواني يجب ان تكون لي خير عون على أعدائي قال جعلت فداك اني أبذل نفسي في سبيل قهر أعدائك قال ليس الامر يحتاج الى بذل نفس فانّ لي عدواً وسماه له أريد أن تصف لي سماً أهلكه فيه . فصمت يوحنا ولم يجب قال الرشيد مالك لا تجيب قال اذا كان لمولاي عدوّ فاني اخرج اليهِ وأقاتله والنصر بيد الله يؤتيهِ من يشاء قال لا اريد هذا بل أريد ان أدسّ له سما قال هذا ليس باستطاعتي فتظاهر الرشيد بالغضب الشديد وقال بما انك تأبى ان تصف لي سما وقد وقفت على سري فلا آمن ان تفشيه وعليهِ فاني قاتلك لا محالة قال هذا ودعا بالسيف والنطع خضرا ويوحنا رابط الجأش وحضر الجلاد فمسك يوحنا وربط يديه ورفع سيفه والرشيد

يقول أي يوحنا نجاتك بيدك فاجاب اني لاأستطيع ماتريدفضحك الرشيد حينئذ وأمر بفك يوحنا وقرّب مجلسه منه وقال له ماحملك على مقاومتي بما طلبته منك قال الدين والصنعة فاما الدين فقد حرم قتل النفوس وأماالصنعة فقد وجدت لخير الناس لا للاضرار بهم قال لله درّك واجازه وأزاد في احترامه واجلاله ونكل بالذين وشوا به

وممن حازوا على رضاء المامون من علماء النصارى هم يوحنا البطريق وقد اقامه اميناً على ترجمة الكتب من كل علم وفن وسهل بن سابور وابنه سابور الذي ولاه بيارستان جند يسابور وغيرهم كثيرن وكان يحسن اليهم بالمال ويعزز مكانتهم بالجاه اكراماً للعلم

وكان بختيشوع بن جبريل العالم والطبيب النصراني المشهور ذا مكانة عالية عند المتوكل وكان كثير الادلال عليه يدلك على ذلك الحادثة التالية فقد روى المؤرخون أن بختيشوع دخل على مجلس المتوكل وكان حافلا بالامراء والعلماء فهش له وبش كعادته واجلسه بجانبه وكان بختيشوع يلبس دراعة حرير رومية فنظر المتوكل اليها فاذا ابها فتق فجعل يوسع فتقها الى ان بلغ النيفق وهو يحادثه الى ان سأله المتوكل قائلا متى تعلمون ان الموسوس أصبح في حاجة الى العقل (أي الربط) قال بختيشوع اذا عبث بدراعة طبيبه حتى بلغ النيفق عقلناه فقهقه المتوكل ضاحكا حتى استلقى وضحك الحاضرون. فهل بعد هذا من ادلال على الخلفاء وهل بعد هذا من برهان على احترام الخلفاء للعلماء ؟؟

ومع ان الخلفاء كانوا يجلون قدر العلماء ويعلون مكانتهم على ما رأيت وكل هذا الذي رأيته هو قليل من كثير ان بعض اولئك العلماء لم يسلموا من استبداد

رجال الدين فان حنين بن اسحاق النصراني العبادي كان من كبار العلماء واشهر المترجمين لكتب ارسطو في الفلسفة وقد اتصل بالمتوكل فنال عنده حظوة ومكانة واصاب منه خيراً جزيلا وكان معروفاً بالفصاحة وحسن الترجمة وهو صغير على عهد المامون وكان المامون يعطيه ثقل ما يترجم ذهباً . على أن حنين هذا وشى به حاسدوه الى مجلس الاساقفة بانه يترجم فلسفة ارسطو وهي ضد الدين المسيحي ومنافية له فاجتمع مجمعهم واقروا على حرمه من الكنيسة والمحروم عندهم ينقطع أهل دينه عن مواكلته ومجالسته ومخالطته فمات غما وحزنا وكمدا والغريب في هذا الحادث ان الاساقفة حرموا الرجل لاجل علمه بينما كان خلفاء المسلمين من اكبر انصاره لاجل علمه على ان المتوكل لم يتعرض لهذا الامر احتراماً منه لحرية الاديان فتامل .

ومن علماء النصرانيـة الذين نبغوا على عهد العباسيين متى بن يونس المنطيقي وما زال يعظم قدره عند الخلفاء والوزراء والعامة حتى نال الرئاسة في بغداد وعنه اخذ أبو نصر الفارابي العالم المشهور

اننا نقف عند هذا الحد من تعداد علماء النصارى الذين نالوا مساعدة الخلفاء واصابوا المكانة العالية عندهم ولو أردنا استقراءهم جميعاً لضاق بنا المقام وملّ القاري اللبيب أما علماء الاسلام وفلاسفتهم الذين نبغوا في ذلك العهد ونالوا ما نالوا من مساعدة خلفاء الاسلام وكان لهم عند العامة مزيد الاجلال والاحترام فهم كثيرون ونحتاج الى المجلدات الضخمة لاستقراء أسمائهم واحداً واحداً فهناك فيلسوف الاسلام أبو يوسف يعقوب الكندي وموسى بن شاكر محمد وأحمد والحسن الجغرافيان اللذان مسحا الكرة الارضية وعرفا محيطها وقطرها وقالا بكرويتها وابن سينا والفارابي والوف غيرهم وكلهم كانوا

ذوي مقامات عالية عند الخلفاء والامراء وبعضهم نالوا مناصب الوزارة وكان القضاة كلهم منهم و بالاجمال ان العلم أزهر في عهد الخلفاء العباسيين كل الازهار والعلماء كانوا في ذلك العهد في أعلى منزلة منظورة وكان الخلفاء يؤيدونهم وهم ذوو صفة دينية ويعضدونهم بالاموال الطائلة

وقد اسهبنا المقال عما كان للعلم والعلماء من المجد الباذخ على عهد بني العباس في بغداد اما في الاندلس فيكفينا أن ننقل شهادة العلامة بطرس المؤرخ والفيلسوف النصراني عند كلامه على اسبانيا في عهد المسلمين وهو شاهد عيان لا شاهد سماع قال « ولقد رأيت كثيراً من العلماء يأتون الى اسبانيا (وهي في يد العرب) لتلقي العلوم الفلكية حتى من بلاد انكلتره وغيرهم كانوا يسعون اليها في طلب العلوم على انواعها فيجدون مقاما وحبا » وقال أيضاً هذا المؤرخ « وكان قصر الخليفة يشبه أن يكون مصنعاً للكتب » واذا اضفنا شهادة هذا المؤرخ الى شهادة احد علماء الاميركان الذي قال « وكانت الاندلس على عهد الخليفة الحكم فردوساً وكان اليهود والنصارى يتلاقون فيها تحت ظلال الامن والحرية » ظهر لنا ما يغنينا عن الاسهاب فيما نريد اثباته من فضل المسلمين وحبهم للعلم بنعمة الاسلام

ويدلك بالاكثر على عناية المسلمين بالعلم انهم هم الذين اخترعوا صناعة الورق وهم الذين اكتشفوا صناعة الطباعة التي بها سهل على الناس نشر العلم ومن المعلوم أن الحاجة ام الاختراع فلو لم يكن للعلم نشأة خصيصة بين المسلمين لما توصلوا الى صناعتي الورق والطباعة لتسهيل نشره فتامل

ومما يدلك بالاكثر على احترام الاسلام للعلم والعلماء وعدم معارضتهم في كل مايقولون ويتفلسفون ظهور أبو العلاء المعري بينهم وقد قال أبو العلاء

مثل ماقال فولتير وجان جاك روسو وغيرهما من فلاسفة النصارى والفرق بين الاثنين ان أبا العلا ظهر في وسط هو أقل استعداداً طبعاً لسماع مثل أقواله من العصر الذي ظهر فيه ذينك الفيلسوفان ومع هذا فان أبا العلا ظل مكرماً عزيز الجانب بينما ترى كنيسة النصارى تحرم على الناس حتى الساعة تلاوة كتب فولتير وروسو وترميها بوصمة الكفر فتأمل الفرق البيّن بين النصرانية والاسلام من هذه المقابلة البسيطة وكفى

الفصل العشرون

في اضطهاد النصرانية للعلم والعلماء

رأينا في الفصل السابق ان الخلفاء المسلمين كانوا يعلون قدر العلماء من مسلمين وغير مسلمين اكراماً للعلم وحباً في نشره والمفكر يستنتج من ذلك ان العلم لاينافي الدين عند الاسلام بل بالعكس يدعمه لان الخلفاء لو أساؤا الظن بالعلم وحسبوه مضراً بدينهم لما تأخروا عن محاربته كما فعل النصارى ومن هنا تري الفرق البيّن بين المبدئين النصراني والاسلامي فيما يتعلق بالعلم وهو كما قلنا أساس المدنية والحضارة

ولبيان مافعلته النصرانية في اضطهاد العلم والعلماء نحتاج الى تطويل واسهاب فنقول . ان النصارى لم يتساهلوا مرة مع من لايدين بدينهم بل استعملوا الشدة ليس مع أهل الاديان الاخرى بل بين بعضهم بعضاً مرتكنين بذلك على ماجاء في انجيلهم فقد رووا عن سيدنا عيسى انه كان مرة في هيكل سليمان في اورشليم (١) يعظ ويعلم وكان في الثانية عشرة من

(١) ان هيكل سليمان هو الذي بناه سيدنا سليمان عليه السلام وقد تهدم ثمّ أعيد

عمره فاضاعه أبوه وامه واخوته وجعلوا يفتشون عليه فجاءه في الهيكل من قال له ان أمك واخوتك واقفون خارجاً و يطلبون ان يكلموك فأجابهم من هي أمي ومن هم اخوتي ثمّ مدّ يده الى تلاميذه الحواريين وقال هؤلاء هم أمي واخوتي واستنتج النصارى من هذا وجوب مقاطعة كل من لايدين بدينهم حتى ولو كانوا لهم بقرابة الاب أو الام او الاخوة ورووا ايضاً عن سيدنا عيسى انه قال « لم آت لألقي سلاما بل سيفاً » وانه قال ايضاً « هوذا يترك الابن اباه والاخ اخاه لاجل اسمي » الخ وعلى هذه القاعدة أوجبوا وحدة الايمان في كليات الدين وجزئياته حتى تتوحد كلمتهم ولما كان هذا لايتسنى مع العلم لما في النصرانية من الايمان بالامور الغيرمعقولة كتأليه الانسان واعتبار الخمر والخبز نفس جسد الاله ودمه بعد صلاة القسيس عليهما والولادة من الماء تطهر الانسان من خطاياه الى آخر ماعندهم مما لا يدخل تحت الحصر أقروا على وجوب الجهالة وانها ام التقوى كما أقروا على ان العلم مدعاة للكفر وجعلوا يحاربونه بكل طاقتهم وجعلوا تفسير الانجيل والتوراة منوطاً بالاديار بالرهبان والقسيسين وهم يعلمون الشعب ايمانهم حسب مايرتأون

وكان اذا نبغ نابغة من النصارى وتجرأ على اظهار شيء مما كشف الله له من حقائق نواميس هذا الكون يحكم عليه بالزجر او بالقتل على ماتقتضيه المصلحة

ولا يظن القاري الكريم اننا نبالغ في القول من اضطهاد النصرانية

بناوه اكثر من مرة وفي الاخير خربه الرومانيون بعد التاريخ المسيحي بسبعين سنة ولم يبن بعد وعلى انقاضه اقيم المسجد الاقصى ولا يزال احد اسواره قائماً حتى الآن وترى اليهود يقصدونه افواجاً كل يوم سبت ويبكون وينتحبون وهم يعتقدون ان الله سيعيد لهم بناءه بمعجزة خارقة وستكون حجارته من الجوهر فتأمل

للعلم بل نورد له بعض النوادر ليستدل منها على ماعداها فقد روى المؤرخ اوروسيوس ان تيوفيل بطريرك الاسكندرية وجد بقايا كتب في مكتبة البطالسة الشهيرة التي كانت احرقت على عهد جول قيصر فاستصدر أمراً أمبراطورياً بحرقها فاحرقت وانه «اي المؤرخ المار ذكره» قدم الاسكندرية بعد عشرين عاماً فوجد ادراج الكتب خالية خاوية ومن الغريب ان واحداً من مؤرخي المسلمين نسب حرق هذه الكتب الى الامام عمر بن الخطاب وذلك ان عمرو بن العاص عند مافتح مصر ودخل الاسكندرية وجد المكتبة المذكورة عامرة بالكتب فأرسل يستفتي ابن الخطاب بابقائها او حرقها فأجابه ان كان مافيها يوافق القرآن ففي القرآن الكفاية وان كان يخالفه فلا ضرورة لوجودها فلما تناول الجواب أمر بحرقها ولا يبعد ان هذه الرواية نقلها ذلك المؤرخ اعتباطاً او رواية عن متعصب الاسلام بغير معرفة ومصيبة الاسلام من مثل هولاء المتعصبين واعتقد الكثيرون بصحة الرواية وان الاسلام جنى هذه الجناية التي لاتغتفر على العلم وأهله الى انظهر الحق وزهق الباطل واتضح ان النصارى هم الذين أحرقوها

ثمّ قام على الاسكندرية القديس سيريل بطريركا وهو ابن أخت تيوفيل المتقدم ذكره وكان هذا خطيباً مفوها ذا سلطان على القلوب وظهرت في ايامه ابنة عالمة رياضية فلكية تشتغل بالفلسفة والعلوم وتسمى هيباتي وكانت هذه الابنة على الوثنية وكان يجتمع عليها الكثيرون من أهل العلم والادب فتباحثهم بأسرار هذه الحياة وكان موضوع بحثها «من انا؟ والى أين اذهب ؟ وماذا يمكني ان اعمل ؟» فلما انتهى نبأها الى البطريرك المشار اليه أخذ يحاربها بخطبه ويحرض الناس على قتلها خوفاً من انتشار فلسفتها التي

اعتبرها منافية لروح الدين المسيحي وما زال كذلك حتى اوغر عليها صدور العامة فترصدوها في طريقها قال المؤرخ فبينما كانت سائرة يوماً الى مجلسها هجم عليها المسيحيون وجردوها من ثيابها وساروا بها الى الكنيسة ظاهرة العورة وهناك في بيت العبادة قتلوها ومثلوا بها اقبح تمثيل وجردوا لحمها من عظمها وما بقي منها القوه في النار كل هذا اخفاء لنور العلم واضطهاداً للعلماء

ومثل هذه النادرة نوادر أخافت المسيحيين من العلم حتى انك لاتكاد تسمع ذكراً للعلم في صدر النصرانية الثاني اي من عهد تنصر قسطنطين الملك عند المسيحيين بل كان دأب المسيحيين الاختلافات المذهبية وكانوا في اختلافاتهم تلك يستعينون بالملوك ويفنون بعضهم بعضاً

ولما ظهر الاسلام وانتشر وامتدَّ امتداده المعروف تجددت فيه نشأة العلم فجعل الخلفاء والامراء المسلمون يعاونون العلماء ويحضونهم على نشر العلم ونقله من السريانية والكلدانية واليونانية الى العربية وكان ذلك في بغداد كما كان في الاندلس حيث دخلت البلاد الاندلسية في الحضارة الاسلامية الزاهية فصعب ذلك على البابوات وخافوا منه على دينهم فجعلوا مع قسيسيهم يحرضون الناس على محاربة المسلمين بدعوى انهم قوم وثنيون تغلبوا على الاراضي المقدسة وأجلوا عنها عبادة الاله الواحد وأضاعوا منها الفضائل المسيحية ولما كان المسيحيون لذلك العهد جهلاء يؤمنون على كل مايقوله لهم رؤساؤهم الدينيون قاموا بحرارة دينية وباسطة مسيحية لمحاربة الاشراك والوثنية في شخص الاسلام على مايزعمون وتهجموا على المسلمين بحماس المؤمنين على الكافرين وذلك بمحاربة الاندلسيين وهجوم الصليبين

على ان الالوف الذين عادوا الى أوروبا بعدهذه الحروب الدينية الشعواء تغير اعتقادهم بالمسلمين اذ رأوا من مخالطتهم غير ما سمعوه عنهم من روسائهم وجعلوا يقصون على قومهم مارأوا بالعيان من ان اعداءهم المسلمين قوم ذوو شمم ومكارم أخلاق ومروءة وكرم وانهم فوق ذلك موحدون يعبدون الاله الاوحد فحسن حينئذ ظن اولئك النصارى بالمسلمين كما ساؤا ظناً بروسائهم الدينيين

على ان هذه الحروب الصليبية التي شنها الباباوات وقسيسوهم على المسلمين كانت سبباً لاضطراب النصرانية لان الصابيين كما عادوا مخبرين بما لقوه في بلاد الاسلام من الحضارة والعلم وحسن التدين عادوا حاملين معهم شيئاً من علومهم وفلسفتهم ولا سيما ماسموه فلسفة ابن رشد وحينئذ رأت الباباوية ضرورة العمل بشدة لقتل العلم في مهده بين النصارى واليك بعض ماعاملته مع اولئك المتعلمين الذين جعلوا يتجرأون على القول بما ينافي ظاهر مافي الكتب المقدسة

فقد جاء في توراة سيدنا موسى على مافي أيدي اليهود والنصارى ان الله سبحانه بعد الطوفان عاهد نوحاً على ان لا يرسل مرة ثانية طوفاناً يغرق وجه الارض وانه جعل قوس قزح في السحاب دليلا على ان لاخطر من الطوفان عند مايرسل انسحاب هوامي المطر فقام العلامة دي ر ومتيس وقال ان قوس قزح ليست قوس سلام كما يقول موسى بل هي نتيجة انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء فلما بلغ أمر هذا العلامة مسامع الباباستشاط غضباً وحكم بكفر الرجل وأمر باحضاره مكبلا الى رومية وهناك حبسه الى ان مات ثمّ بعد موته حاكم جثته وحكم عليها بالحرق فاحرقت وجاء في حيثيات

الحكم من جملة مساوي هـذا الرجل انه أراد الصلح بين كنيستي رومية وانكلتره وهي جريمة ثانية تفوق جريمته الاولى في تكذيب توراة موسى بمسألة قوس قزح لان الكنيسة لا تريد سلاماً بل سيفاً فتأمل

على ان حادثة رومنيس هذا هي واحدة من ألوف أمثالها لان كتب المسلمين بعد الحروب الصليبية كانت قد توزعت على الناس وعلومهم قد تسربتها عقول الخاصة من العلماء ولذلك رأى البابوات بدعوى سلامة الدين ان ينشئوا مراقبة على المطبوعات وأجبروا كل عالم يضع كتاباً ان يعرضه قبل نشره على اللجان الخصوصية التي تألفت لهذا الغرض وجعلوا جزاء كل من ينشر أو يطبع كتاباً بغير ان يعرضه على مجلس المراقبة الحرم الكبير ووضعوا غرامات باهظة على أصحاب المطابع اذا تجرأوا على طبع كتاب ماليس عليه اشارة من الكنيسة تدل على انه دخل تحت المراقبة

ثمّ رأى البابوات ان العلم ينمو على الرغم من تشديدهم فمالوا الى الشدة فالفوا ديوان التفتيش الذي سبق انا ذكره وكانت مهمة هذا الديوان سلامة الكثلكة ومحاربة كل من يرتدّ عنها عالما كان أو غير عالم ويقول المؤرخون ان شدتهم على العلماء كانت أعظم بكثير منها على البسطاء بل ان البسطاء قلما كانوا يقعون في أيدي رجال التفتيش الا اذا كانوا من الاغنياء توصلا لاختلاس أموالهم

واحصى بعض المؤرخين عدد شهداء هذا الديوان في مدة ثمانية عشر عاماً من سنة ١٤٨١ الى سنة ١٤٩٩ فكان عدد الذين احرقوا وهم احياء ١٠٢٢٠ شخصاً والذين شنقوا ٦٨٦٠ شخصاً والذين نالهم عقوبات مختلفة ٩٧٣٢٠ شخصاً واحرق هذا المجلس كل توراة وجدت في اللغة العبرانية

وفي سنة ١٥٠٢ مسيحية قرر مجمع لاتران أن يلعن ابن رشد وفلسفته وكل من ينظر اليها وجعل القسيسون هذه اللعنة قسما من عبادتهم الا أن ذلك ازاد الناس رغبة في الوقوف على فلسفة ابن رشد « الملعونة » والاهتداء بهديه وحينئذ تقرر في الاذهان ان العلم لا يقف في وجه تياره اضطهاد

وقد ذكرنا كثيراً فيما مضى عن هذا الديوان ومساويه فلا ضرورة للاسهاب ونكتفي أن نقول أن ديوان التفتيش قد تأسس سنة ١٤٨١ والغي سنة ١٨٠٨ وبلغ عدد الشهداء الذين نكبهم بين حرق وشنق وتعذيب ثلاثماية واربعين الف شخصاً ونيف فتأمل

ومن اضطهادات الكنيسة للعلماء انها احرقت في سنة ١٦٠٠ العالم برونو وهو حي لانه قال بقول الصوفيه أن الله واحد احد وأن هذا العالم يحتوي على عوالم كثيرة

وكان رأي الناس بسطحية الارض فاظهر العلماء المسلمون في عهد الخلفاء العباسيين كرويتها عند ما مسحوا الارض كما سبق واشرنا فلم تضطرب الاسلامية لذلك لان الاسلام لا يعارض العلم ولكن عندما انتقل هذا الرأي للمسيحيين وقالوا به قامت الكنيسة وقعدت واضطربت له اعصاب المسيحية فجعل القسيسون يضطهدون قائليه وينكلون بهم تنكيلا

وهذا كريستوفس كولمبس مكتشف اميريكا قال بوجود ارض ثانية وراء الاتلانتيك لم يصل البشر اليها وعرض رأيه على الملوك ليساعدوه فقامت قيامة الكنيسة عليه وبعد جدال طويل عريض وبعد عرض رأيه على قديسي النصارى وهم العلماء من قسيسيهم لم يتوصلوا الى حل للاشكال الذي [illegible] فيه ثم ساعدت كولمبس ملكة اسبانيا ايزابيلا رغماً عن ارادة الكنيسة ووجهته في الاتلانتيك عالما وجنودها فسار وعاد ظافراً [illegible]

نظراً أن كولمبس قال انه توصل الى فكرة وجود ارض وراء الاتلانتيك من كتب فيلسوف الاسلام بن رشد

وحكمت الكنيسة على غاليلي بالكفر لانه قال بان الكواكب تسير بنظام طبيعي وهو الرأي المعول عليه عند علماء الهيئة اليوم واصبح حقيقة لا ريب فيها.

وأغرب ما سمعنا عن مقاومة البابوات للعلم تداخلهم بالشؤون الطبية التي لا ضرر منها على الدين ولا ضرار فقد اخترع المسلمون في القسطنطينية طريقة الحقن تحت الجلد فنقلتها الى اوروبا امرأة طبيب تدعى ماري موناكوسنة ١٧٢١ فقامت قيامة الكنيسة عليها وحرمت استعمالها ولما كانت طريقة الحقن هذه كثيرة الفائدة للمرضى التمس الاطباء مداخلة ملك الانكليز لمنع اعتداء الكنيسة على مستعمليها وهكذا فعلت الكنيسة عند ما اخترعت عملية تطعيم الجدري التي أصبحت الزامية تسهر الحكومة على تنفيذها وتقاص من يتهاون بتطعيم اولاده. ومثل ذلك تحريم الكنيسة اختراع الاميريكيين طريقة تخدير المرأة حتى لا تشعر بالم الولادة وقد جعلوا سبب هذا التحريم انه مناف لحكم الله على ما يزعمون لان الله سبحانه « كما عندهم في التوراة » حكم على المرأة بعد أن اخطأت باغراء رجلها على أكل الثمار التي حرم عليهما أكلها أن تحبل وتلد بالاوجاع

وقد يخطر للقاري أن مقاومة الكنيسة للعلم كانت في الاجيال المتوسطة فقط وهي الاجيال التي يدعونها بالمظلمة لكنه على خطأ من ذلك فان الكنيسة ولاسيما الكاثوليكية تضغط على العلم والعلماء وتحارب كل رأي يخالف رأيها حتى اليوم والى الابد

ففي سنة ١٨٦٤ نشر البابا منشوراً حكم فيه باللعنه على كل من يقول بجواز خضوع الكنيسة للسلطة المدنية أو من يفسر آية من آيات الانجيل أو التوراة خلافاً لتفسير الكنيسة أو يقول بان الانسان حرّ في اعتقاده

وفي سنة ١٨٦٨ جمع البابا مجمعاً عاماً من مطارنته وقسيسيه قرر فيه مالم تستطع الكنيسة تقريره في العصور المظلمة وذلك أن ستنا مريم عليها السلام هي كابنها سيدنا عيسى عليه السلام ولدت بريئة من الخطيئة وان شخص البابا معصوم بتعاليمه لا يدخل عليه الباطل من بين يديه أو خلفه ورووا ان بعض قسيسيهم في ذلك المجمع قاوموا هاتين العقيدتين فاجبرهم البابا على التسليم بهما قهراً

وفي هذا العام نشر البابا منشوراً دعا به عموم المسيحيين الغير خاضعين لسلطانه الى الخضوع على شريطة ان يسلموا للكنيسة الكاثوليكية بكل ماتعتقد وقد حمد النصارى ربهم انهم كانوا في عصر تلاشت فيه سلطة البابوات والا لنفذوا منشورهم ذاك بالقوة كما سبقوا وفعلوا مراراً وفي هذا المنشور اوجب البابا على النصارى ان يفدوا نفوذ الكنيسة بارواحهم واموالهم فتأمل

وفي سنة ١٨٧١ حرم الباب استاذاً في احدى كليات المانيا لانه رأى رأيا مخالفاً للكنيسة الكاثوليكية وقام مشدداً على امبراطور الالمان بوجوب عزله من وظيفته الى أن تغلب عليه بسمرك بدهائه وابقى الاستاذ في منصبه ونصر العلم على الدين

ولا نتوسع في ذكر الجمعيات العلمية والفلسفية التي الغاها البابوات لان ذلك شرح يطول ويكفي ان نقول ان اكثر كتب فلاسفة القرن التاسع عشر محرم تلاوتها حتى الان على الكاثوليك باوامر البابا بدعوى ان فيها ما ينافي الدين مما لم نسمع بوجوده في وقت من الاوقات في البلاد الاسلامية

الفصل الحادي والعشرون

في ان هذه الحوادث ليست خاصة

بواحد او اكثر من الباباوات

لا بدّ أن يعترض علينا معترض بان هذه الحوادث التي ذكرنا القليل منها قد صدرت من واحد أو اكثر من الباباوات فلا يجوز أن نلصقها بطبيعة الدين المسيحي وللجواب على هذا الاعتراض الافتراضي نقول :

اولا من طبيعة الدين المسيحي الاعتقاد بالاشياء الغير منظورة كالمنظورة (١) وبعبارة افصح بالاشياء الغير معقولة كالمعقولة ولما كان في اعتقادهم امور لا يسلم بها عقل عاقل كالاعتقاد بنأبيه سيدنا عيسى وكقولهم ان الله ثالث ثلاثة وكقولهم أن الخبز والخمر بعد صلاة الكاهن يتحولان الى جسد ودم حقيقيين هما جسد ودم سيدنا عيسى عليه السلام وكقولهم ان في سلطة القسيس ولو كان خاطئاً آثما شريراً قوة مغفرة الخطايا وامساكها الى آخر ما يقولون ويعتقدون وجب عليهم ان يحافظوا على بساطة الشعب حتى لا يناقشهم في صحة هذه الاعتقادات التي لا يسلم بها من عنده مسكة من العقل والصواب

ثانياً ان تسلط الاكليرس على الناس الى هذه الدرجة القاسية لا يتم مع العلم وللمحافظة على سلطانهم جعلوا يقاومونه ويحاربونه

ثالثاً ان محاربة الكنيسة للعلم لا تقتصر على زمن معين بل هي امتدت من عهد قسطنطين وقبله الى هذا العصر وستدوم طالما النصرانية دائمة ولا

---

(١) انظر التعليم المسيحي

يغرّنك ماتشاهده من مدارس القسيسين المنتشرة في كل صقع ومصر فان هذه المدارس مافتحت الا بعد ان انتشر العلم وسقط نفوذ القسيسين وأرادوا بها تلافي بعض الشرّ عنهم وذلك بتثقيف الناشئة على مبدأ احترام رجال الدين والاصغاء لاوامرهم ولذلك ترى العقلاء يحاربون مدارس القسيسين في أوروبا لما يرون من واقع اضرارها ولا سيما في فرنسا مهد الحرية والعلم

ومن هذا يتضح لك ان من طبيعة الدين المسيحي مقاومة العلم والعلماء وسترى كيف تقدم العلم في أوروبا بالرغم عن الكنيسة فيما سيجيء



الفصل الثانى والعشرون

في اعتقاد المسلمين بالمسيحية

نرى من الواجب في هذا المقام أن نذكر اعتقاد المسلمين ونريد علماءهم العقلاء بالمسيحية بل وبالاديان الالهية حتى يرى القاري أن ما كتبناه لم نرد به الا النظر في هذه المسيحية التي يتمشى عليها المسيحيون وانها غير المسيحية التي جاء بها سيدنا عيسى عليه السلام ويرى القاري الناقد ايضاً مما نقول أن المسلم الحقيقي الذي يعتقد بالمسيحية ما يعتقد لا يمكن ان يضمر لها بغضاً

يعتقد المسلمون أن المسيح هو روح الله وكلمته ورسوله حسب صراحة نص القرآن الشريف وانه أرسل لبني اسرائيل مصدقا لما بين يديه من التوارة وانه جاءهم هادياً ونزيراً ومرشدا في شؤونهم المعاشية والمعادية وانه لم يجيء قومه مطالبا بتعطيل قوة من قواهم التي منحهم اياها الله سبحانه بل حضهم على شكر المانح الخلاق العظيم وان شكره لا يكون الا باستعمالها في وجوهها المشروعة

وفوق ذلك فان المسلمين يعتقدون ان الدين هو من الله وهو دين واحد لاله واحد في الاولين والاخرين واذا كان فيه اختلاف فهذا الاختلاف ناجم عن صوره ومظاهره لا عن حقيقته وانه لا يمكن تغييره مهما تغيرت العصور وتبدلت الدهور ومحوره قائم على عبادة الله الواحد الاحد وتقديسه وشكره على نعمه وان الائتمار باوامره كلها عائدة على البشر بالخير والسعادة ونواهيه مانعة عن الناس التعاسة والشر وهذا عند جميع المذاهب والاديان الالهية وما تجاوزها متجاوز الا عن جهل في حقيقة الدين

وهذه المبادي الدينية هي ثابتة لا يمكن أن تحول وتضعف من البشر مهما ارتقوا في العلم وتفقهوا بالفلسفة لان عبادة الله الواجب الوجود لاتنافي العقل السليم والعلم الصحيح وعمل الخير والامتناع عن الشر من الاسباب العائدة على الحضارة بالرقي ولذلك يوجبها العلم كما يوجبها الدين

وبما أن المسلمين هذا اعتقادهم بالنصرانية وبسائر الاديان وان دينهم بسيط الى هذا الحد فلا خوف عليه من العلم لذلك لم يفكروا ابداً في محاربته والتضييق على اتباعه بل كانوا من اعظم المساعدين للعلم والمناشطين للعلماء فتأمل

واعتقاد المسلمين هذا لايقتصر على الاديان الالهية فقط بل وعلى الاديان الوثنية لان الله سبحانه جاءهم بان الوثنيين كانوا يعبدون انصابهم وأصنامهم زلفى اليه تعالى

ولعمري ان الدين الذي يعلم اتباعه احترام كل الاديان وان مصدرها هو الله سبحانه وان البشر أساؤا فهمها بجهلهم لخليق ان يربي أمته على سعة الصدر في معاملة غيرهم الاجانب عن دينهم بالحسنى وفي معاملة الحسنى بين المواطنين تزهر المدنية والعمران وترتقي الحضارة كما هو بديهي اذا تفكر المتفكرون

الفصل الثالث والعشرون

في عهد الاصلاح في اوروبا

ابتدأ الاصلاح في أوروبا من عهد البروتسطان أي المحتجين ووجه تسميتهم بذلك انهم احتجوا على الباباوات فيما ادخلوه على الدين من الاضاليل وما حرموه على المسيحيين من تلقي العلم حتى حرّموا عليهم قراءة الكتب المقدسة بدعوى انهم لا يفهمونها

وزعيم البروتسطان هو الراهب لوثيروس وكان هذا الرجل عالماً فاضلا عاقلا وقد ظهر في اواخر القرن السادس عشر المسيحي حين كان الباباوات في اعلى درجة من العزّ والسؤدد وكان راهباً منزويا في ديره فاطلع على مساوي الرهبان وما يرتكبونه من المنكرات وعلى استبداد الباباوات في الدين فابت نفسه الصبر على الضيم فنزع عنه الثوب الرهباني وتزوج باحدى الراهبات وكانت خليلته في عهد الزهد واخذ يحارب الكنيسة الكاثوليكية ويأخذها بالحجة فالتفّ من حوله الكثيرون وقاموا ينادون بصوته وقامت الحروب الدينية بين الفئتين فافنوا بعضهم بعضاً

وكان لوثيرس هذا كثير الدهاء فلم يتعرض للاعتقادات الجوهرية في الدين خوفاً من الفشل بل ابقى كل شيء على حاله وقام لارجاع الباباوات عن بيع السماء امتاراً واصدار اوامر الغفرانات بالمال واباح للعامة مطالعة الكتب المقدسة وجاهر بوثنية عبادة الصور والتماثيل الخ

على ان لوثيرس هذا لم يخرج عن انه تلميذ رومية فبقي في صدره محاربة الفلسفة والعلم حتى أنه كان يلقب ارسطوطاليس الفيلسوف المشهور بالخنزير

الدنس الكذاب وكان ضيق الصدر على من يقرأ فلسفته وتبعه في ذلك كلفينوس وهو الزعيم الثاني للبروتسطانية وهذا حكم على فايتي سنة ١٦٢٩ بالموت لانه جاهر باراء منافية لاعتقاد المسيحيين وحكم أيضاً على سيرفيت بالحرق لانه قال بان الدين المسيحي اصيب بالبدع من قبل عهد قسطنطين والمجمع الذي جمعه في نيقيه وكان كلفينوس هذا شديد الكره لارسطاليس وفلسفته وشديد النقمة على مريديه هكذا كان شأن هذان المصلحان مع الفلسفة واحتقار اكبر فيلسوف وهو ارسطوطاليس ومقاومة فلسفته بينما كان المسلمون في الاندلس وبغداديتهافتون على تلقيها ويسمون صاحبها بالمعلم الاول فتأمل

وبالاجمال لم تكن البروتسطانية في نشأتها اخف وطأة من الكاثوليكية على العلم بل كانت مثلها تشدد النكير على المتعلمين ولكن فضلها انحصر في تخفيف وطأة رجال الدين وضعضعة سلطتهم فمهدت السبيل لنشر العلم وهذا مهالاجدال فيه ولذلك يدعو الاوربيون عهد ظهورالبروتسطانية بعهد الاصلاح الاوربي



الفصل الرابع والعشرون

النصرانية في القرن الثامن عشر

ان القرن الثامن عشر المسيحي كان قرن حرب وجلاد في أوروبا اصطدمت فيه القوة الحاكمة مع القوة المحكومة ونتج عن هذا وذاك سقوط الاستبداد الديني والاستبداد السياسي وبسقوط هذين الاستبدادين نال الناس حريتهم فانصبوا على العلم وجدوا في طلبه . والحرية التي سطعت في سماء أوروبا في هذا القرن خلطت بين طبقات الناس بعد ان كانوا متقاطعين حسب طبقاتهم ونجم عن هذا الاختلاط نشأة في الهمم واستنارة في الافكار فاندفعوا وراء الاختراعات في الصنائع والفنون وساعد الاوربيين على هذا الارتقاء الثورة الفرنسوية الاهلية التي قام بها الفرنسويون ضد ملوكهم ورجال الدين معاً فان فوز الشعب الفرنساوي بعنق لويس السادس عشر وعنق زوجه الملكة كان فوزاً لكل اوروبا بحريتها وشوراها وعلمها وحضارتها

نعم ان الثورة نشأت في فرنسا ولكنّ انباءها ملأت صدور الاوربيين كافة فتحمسوا للحرية واستعدوا لها كما ان ملوك أوربا اخذوا حذرهم معتبرين بما جرى لاخيهم ملك فرنسا وعرشه فجعلوا يخففون وطأة استبدادهم عن الشعب غير مصغين لتشجيع رجال الدين على مقاومة الثائرين

وكان ختام هذا القرن مباركاً ميموناً على الحضارة الاوربية لظهور نابليون بونابرت العظيم وهو واحد من عامة الشعب كان ضابطاً في الجيش وما زال يرتقي الى ان نودي به امبراطوراً على فرنسا فجرّ جيشه الفرنساوي المؤلف من ابناء أولئك الابطال الذين اشتروا حريتهم بدمهم وحارب بهم

أوربا بجملتها فاختلط الجيش الفرنسوي بسواد الاوربيين وقص عليهم شفاهاً ما فعله آباؤه لهدم الهيكل والعرش فكان ذلك احسن درس للعامة فالوا جميعاً للحرية ولهذا كان فضل نابليون خصوصاً والفرنسويين عموماً على الحضارة الاوربية مما لا يختلف فيه اثنان

وأقرّ علماء العمران بفضل الفرنسويين ودعوهم اساتذة الحرية والمساواة والاخاء وان أوروبا لم تنل هذه المبادي الثلاثة بكل معانيها الا بفضلهم وعليها بنوا ما بنوا من علم واختراع وسياسة وأدب كما أقرّوا بان حروب نابليون مما جرّت على العالم من الويلات والخسائر والاضرار كانت المحرك الاكبر لهذه النهضة الباهرة

واذا علم القراء ان النهضة الفرنسوية ابتدأت ضد الكنيسة اولا لان استبدادها هو الذي كان يدغم استبداد الملوك ظهر لنا ان ارتقاء الاوربيين الذي يفاخرون به العالمين كان نتيجة من نتائج الابتعاد عن النصرانية وتركها واحتقار روسائها والضرب على ايديهم وايقافهم عند حدهم فاي فخر للنصرانية بها ؟؟ هذا ما نجهله ولا نرى من يجيب عليه في كل هؤلاء الذين يطعنون على الاسلام

الفصل الخامس والعشرون

في النصرانية في القرن التاسع عشر

ما من ينكر أن المدنية قد زهت زهوها في القرن التاسع عشر المسيحي فسموه بالقرن الحديدي البخاري لان فيه امتدت اسلاك الحديد التي قربت المواصلات بين الابعاد وفيه استعين بالبخار على جرّ الاثقال في البر وسوق البواخر في البحار بل ان القرن التاسع عشر لا نسبة بينه و بين القرون التي خلت قبله من عهد سيدنا آدم حتى الآن فقد كانت الحضارة تتمشى في هاتيك القرون تدريجياً الا القرن التاسع عشر فانه سار بالحضارة والمدنية طفرة واحدة ورقى الى السماك الاعزل بفضل من ظهر فيه من نوابغ العلماء والمخترعين الحقيقيين وفي هذا القرن تقررت حقوق الامم والملل وفي اواخره توطدت اركان السلام . وفيه اصبحت الصناعة تأتي بالمعجزات وفيه اكتشفت المكروبات التي اشار اليها القرآن الشريف « بالطير الابابيل » وفيه سادت الشورى التي جاء بها الاسلام وقبيل اختتامه اخترعت الكهرباء فكان لها أعظم دور في حاجيات الطب وكماليات الحياة ويقدرون ان سيكون للكهرباء في المستقبل القريب اكبر شأن في هذه الحياة

وبالاختصار ان البحث في حضارة القرن التاسع عشر يطول شرحه وليس من مواضيع كتابنا وانما الذي نريد ان نقرره هنا هو أنّ الذين قاموا بنهضة هذا القرن من كبار رجال العلم كانوا من النصارى ولكنهم كانوا من المغضوب عليهم من رجال الدين وانهم من حسن حظهم وجدوا في زمان كان

قد مهد فيه علماء الجيل الذي قبل جيلهم سبيل الاستخفاف باوامر رجال الدين واساءة الظن بهم فما استطاعوا أن يؤثروا تأثيرهم السيء على علومهم أو يضربوا على أيديهم كما فعل القسيسون مع العلماء اسلافهم والا لما امهلت الكنيسة أن تحرم مخترع البخار بحجة انه يعطل على الحيوان عمله أو لحجة اخرى وهلمّ جرًّا

ولبيان هذا الاجمال نقول ان الاوربيين وبطليعتهم الشعب الفرنسوي ماوصلوا الى أواخر الجيل السابع عشر حتى كانوا قد ملوا غطرسة البابا وات واستبداد الكنيسة والذي نبههم بالاكثر الى مساوي روسائهم الدينيين هو الدم الذي جرى انهراً في شوارع باريس في المذبحة التي جرت يوم عيد القديس برتلماوس حيث قام الكاثوليكيون فذبحوا البروتسطان بغير رحمة رجالا ونساء واطفالاً لا لذنب سوى لانهم على غير رأي الكنيسة الكاثوليكية في المذهب

وما استطاعت الكنيسة الكاثوليكية أجراء هذه المذبحة الهائلة التي لامثيل لها في التاريخ ولاتذكر بجانبها اضطهادات الوثنيين للمسيحيين في أجيالهم الاول الالان القسيسين كانوا مسيطرين على عقول رجال فرنسا وهكذا بانضمام استبداد رجال الدين الى استبداد رجال السياسة تفاقم الشر واتصل الى ذبح الناس كالاغنام بغير شفقة ولا رحمة والعياذ بالله

على أن عقلاء الفرنسويين بعد تلك المذبحة كشف ذلك الدم عن بصائرهم فتمثل أمام أعينهم استبداد الكنيسة والملوك مجسما فقاموا يحاربونهما وكان أقدرهم واجرأهم على قول الحق فولتير وروسو فقام هذان النابغتان يشنعان بالدين لا لعلة سوى لاسقاط رجال الدين لانهما كانا سياسيين ولا غرض لهما من حمل الناس على الكفر فسكا التوراة والانجيل وجعلا يندداں

على كل دخيل فيهما بشكل هائل . والغريب ان الشعب الفرنسوي التف من حولها فلم تمدّ اليهمايد الاستبداد بأذى وما زالا كذلك حتى رسخ في أذهان الشعب أن رجال الدين هم افراد من الناس لا ميزة لهم على غيرهم الا اذا امتاز أحدهم بتقوى أو بعلم وأن هذا الدين نفسه الذي هم مستسلمون اليه قد سبق ولعبت به ايدي الروساء فادخلوا عليه ما شاؤا ونشروه كما أرادوا

وكانت النتيجة من هذا التعليم ضعف سلطة رجال الدين وبضعفهم ضعفت الملكية في فرنسا وهكذا تمهدت ثورة الشعب ضد الملكية وما زالت حتى أسقطت الملوك الفرنسويين من حالق مجدهم وتناول الشعب الملك لويس السادس عشر آخر ملوكهم مع زوجه وحكموا عليهما بالقتل. كما تقدم وفي هذه الثورة وضعت أساسات الحرية في فرنسا ومنها امتدت الى سائر اقطار العالم

وعلى سبيل المثال ننشر قصيدة نظمها المرحوم جبرائيل عبد الله دلال النصراني الحلبي ترجمة عن فولتير بعنوان «العرش والهيكل» ومنها يقف القاري الابيب على شكل المنشورات التي نشرت وتنشر لتقويض اركان الاستبدادين الديني والسياسي من صروح اوروبا والحمد لله



الفصل السادس والعشرون

العرش والهيكل

هذه قصيدة من عدة قصائد نظمها العلامة الفيلسوف الشاعر «فولتير» ابو الثورة الفرنسوية المشهورة على ما يلقبه الفرنسويون كما يلقب الاتراك شاعرهم « كمال بك المشهور » وقد ترجمها الى العربية نظماً المأسوف عليه شهيد الحرية « جبرائيل دلال الحلبي » واتصلت بي هذه القصيدة مطبوعة في باريس بطبعة حجرية بتاريخ ١٨٦٤ مسيحية ورأيت من الفائدة ان اعلق عليها الهوامش اللازمة لايضاح ما يصعب فهمه من مغامزها وهي

مواعظ وحكم

عسرت الك الايام في تجريبها ... وسرت بك الاوهام اذ تجري بها
ومضت اويقات الهنا وتلاعبت ... ايدي سبا ببعيدها وقريبها
فالى مَ تعرض ناسيا ذكر البلى ... وعلامَ تغريك الحياة بطيبها
واللمة الشمطاء تنذر بالفنا ... وتشيب صفو صفائنا بشيبها
ولى الشباب واخلقت اثوابه ... واحسرتي لنضيرها وقشيبها
وتجشمت هول الزمان وجوهنا ... وعن النضارة بدّلت بشحوبها
والشمس تسطع في اوان شروقها ... والاصفرار يكون عند مغيبها
وحياتنا بشرورها وغرورها ... كسفت فكان شروقها كغروبها
فكأنها لجج نخوض عبابها ... وسوابق تجري على يعبوبها

فاذا دعتك دواعي اللهو اتشد ... بعداً لسامع صوتها ومجيبها
ربّ النهى من صمّ عن تصويتها ... واخو الحجى من ضل عن تصويبها
تصفو الحياة مع الشبيبة برهة ... ويروق كأس العمر من مشروبها
ومع المشيب تمضنا اكدارها ... واخشيتي من مرّ طعم رسوبها
ركدت وقد كن البلاء وشره ... برحيقها ورسى بصافي كوبها
من دأبها عطل الكريم وسلبه ... جمحت فما تنفكّ عن اسلوبها
عجباً لها ان كان اولُ امرها ... هذا النكال فما ترى بعقيبها
لا تتقي الاحداث سطوة مالك ... وبصمتها حكم لمن يدري بها
فالعرش افصح مخبر بخطوبها ... والنعش اصلح منبر لخطيبها
وبسلبها حال الخليقة اوجبت ... حصر الفصيح بها وعيّ طبيبها
جبت البلاد فما نعمت بشرقها ... وبغربها وشمالها وجنوبها
فبكلّ قطر شاع لغط كرورها ... وبكلّ مصر ذاع فرط كروبها
بخلت بجبر كسيرها وابت فكا ... ك اسيرها ضنت برد سليبها
وألو النهي تبكي لحالة جاهل ... متغافل بعيونها وقلوبها
ان الطبيعة اودعت مكتومها ... في صدر عالمها وذهن اديبها
لا يحزن الراسي شقا مطعونها ... كلا ولا الآسى أسى مضروبها
هل يوجد المعدوم من تحضيرها ... او يعدم الموجود من تغييبها
ابداً لعمري كل ذاك تخايلٌ ... يبدو لغمز ضلّ عن محجوبها
لكنها تأتي بما يتوهم الـ ... رائي عجاباً من جمود صبيبها
فتباعد الاجرام في تحليلها ... وتساعد الاجسام في تركيبها
ضاعت على الجهلاء غايتها وقد ... ضاعت على العقلاء نفحة طيبها

خفيت عن الحمق غوامض امرها ‌ ‌ ‌ واولو النهى علموا حقائق صوبها
وعدوا بخافي سرها وجلائها ‌ ‌ ‌ وغدوا بصافي درّها وحليبها
لكنّ أكثرهم لسوء الحظ قد ‌ ‌ ‌ بلغوا من الدنيا أقلّ نصيبها

وصف رجال الدين

كل الانام وان تباين حالها ‌ ‌ ‌ فالمال جلّ القصد من مطلوبها
فلكسبه أحبار رومة وزّعت ‌ ‌ ‌ للناس كفارات غفر ذنوبها (١)
ولاجله القسان في بيعاتها ‌ ‌ ‌ باعت ذخائرها وعود صليبها (٢)
وبطارك ومطارن اذ مخرقت ‌ ‌ ‌ حصلت بما افكت على مرغوبها
ثمّ ادعت زوراً بخافي قدرة ‌ ‌ ‌ ومزية علوية تسطو بها (٣)
زعمت تسلسل سلطة اذنت لها الـ ‌ ‌ ‌ رسل الكرام بمنعها أو سيبها (٤)
ما بالها عجزت عن الآيات حيـ ‌ ‌ ‌ ث خلافة الافعال في تنويبها (٥)

---

(١) ثبت تاريخياً ان الباباوات كانوا يبيعون اوراقاً من مقتضاها غفر الخطايا للنصاري في الاجيال المتوسطة

(٢) وكان القسيسون « وما زالوا » يبيعون للنصارى قطعاً من الخشب على انها من نفس الصليب الذي يزعمون انه علق عليه سيدنا عيسى عليه السلام عند صلبه وكذلك كانوا يبيعونهم الذخائر وهي عظام قديسيهم وبقاياهم

(٣) وهذه القوة هي سلطان الحلّ والربط المعطى لهم حسب انجيلهم كما يرى القارىء في كتابنا هذا

(٤) أي ان القسيسين زعموا بان سلطتهم متسلسلة عن الرسل أي الحواريين

(٥) وهنا تتمة لمعنى البيت السابق فيقول الشاعر اذا كانوا يزعمون ان سلطتهم متسلسلة عن الحواريين فلماذا عجزوا عن الاتيان بآيات مثل آياتهم ؟؟

عميت عن الخشب الذي بعيونها ... وقذى الانام رأت ونذر عيوبها
فهي الذئاب وان تردت حيلة ... بلباس حملان وظاهر ثوبها
بسوادها تنساب فهي أساود ... تسعى لتنفث سمها بلسوبها

تعاليم المسيحية

وتقول ان الله قامت ذاته ... بثلاثة يقضي النهى بوجوبها [1]
من ضاقت الاكوان عن ان تحتوه ... كلها بفسيحها ورحيبها
قد جاءنا متجسداً من ابنة ... ولدته حقاً كابنها وربيبها [2]
والناس قد قتلوه [illegible] ... ..فرّ من غصص الجحيم وصوبها [3]
وبذاته وجميعه وصفاته ... وتحل عزته وسامي نوبها
يعنو لها متنازلا من عرشه ... بصلاتها أبداً وفعل عجيبها [4]
وبأنّ مالي الكون يحصر صاغراً ... في خبزة تبلى بمضغ رغيبها [5]
حاشا وجل جلاله عن مثل ذا ... وتنزهت أوصافه عن ريبها

---

(١) في ذلك اشارة الى اعتقاد النصارى بالتثليث

(٢) ومن المعلوم ان النصارى يؤلهون سيدنا عيسى عليه السلام ويسمون ستنا مريم « ام الله » فيقول الشاعر ان هذا الاله الذي من صفاته ان تضيق الاكوان عن ان تحويه يزعم القسيسون انه ولد من ستنا مريم وكان ابناً لها وربيبا

(٣) وانهم [أي القسيسون] يزعمون ان هذا الاله الذي هو سيدنا عيسى عليه السلام قد قتله اليهود ثمّ قام فاراً من الجحيم

(٤) يشير الشاعر الى ما يزعم القسيسون من ان بصلاتهم يحل الروح القدس على المؤمنين

(٥) يشير الشاعر هنا الى احدى عقائد النصرانية وهي ان الخبز الذي يصلي عليه القسيسون يصبح نفس جسد سيدنا عيسى بصفته الالهية والعياذ بالله

فلقد تسامى شأنه عن شينها ولقد تعالى قدره عن ذيبها[1]

التوراة

جاءت بأسفار غدت تهذي بها زعمت وجود الحق في تهذيبها[2]
والعقل دلّ على صريح ضلالها والرشد يهدينا الى تكذيبها[3]
وصواب ذي العقل السليم بطبعه يأبى قبول السهل من تصعيبها
ينبي سخيف النصّ عن تزويرها ومناقضات القول في ترتيبها
واذا افترضنا الصدق في أخبارها ووجود محض النصح في تونيبها
أو أنّ كلّ خرافة بحديثها تنبي عن الآتي برجم غيوبها
فنرى الرموز بها أتت بخشونة قد تشمأزّ النفس من تقليبها
كالفتك بالمغلوب دون ترأف وكذبحها الاخوان في تأديبها
وغلاظة الافكار فيما أوردت وقزارة التكهين في تقريبها
فكأنّ كهنتها بهيكل ربها غلمان مجزرة لدى مربوبها
حيث الذبائح والصمائد دهنها مع شحمها وعظامها وكموبها
نسيت جميل الصبر بعد مصائب واياب خيرات الى أيوبها
ووجود خلق لا تعدّ لكثرها من نسل يوسفها ومن يعقوبها
وقد اصطفاها أمة محبوبة باري الخليقة دون كلّ شعوبها
وأنالها بالوعد أحسن بقعة بالارض تنعم في امتلاك خصيبها

---

(١) وفي هذا البيت والذي قبله دلالة على ان الشاعر المترجم والشاعر المؤلف موحدين حقيقة

(٢) يريد بالاسفار اسفار التوراة

(٣) وهنا يتفق الشاعر مع المسلمين بوجوب تحكيم العقل في المسائل الدينية وان التوراة قد دخل عليها التحريف ويبرهن على ذلك في الابيات التي تلي

فاستعبدتها أهل مصر بجورها قسراً لتعمل بالاجرّ وطوبهـا
ودعا لموسى الله من عليقة لهبت ولم تحرق بحرّ شبوبها
واختاره لخـلاص أمته من الـ اسر المهين وشـدّ عزم رعيبها
بسيوف اعجاز أراعت أهل مصـ ر وأرغمت أبطالهم بضيبها
فسطا على سـحرائها بخوارق نكبت بها وعلا ضجيج نحيبها
ذكروا بأن الله أوصى أمـة اسـ رائيل يوم خروجهـا وغروبها
ان تستعـير متاع جـيران وتهـ رب كاللصوص بمالها وذهوبها
ومن العجيب بانهـا مع كثرها عدداً و بطش شجاعها وغضوبها
ومساعدات الله في ابلائه اضـدادها قهراً بامّ رقوبهـا
وحـوادث وكوارث ونوازل نالت بهـا فوزاً على مشجوبها
أودى بها هرباً وساعـده يسا عد سيرها في وخدها وخبيبها
وختام ذا النصر المجيـد لامـة نسبت له ومضى زمان شصوبها
شقـ البحار أمامها لتجوز ها ربة وتنجـو من أذى مغلوبها
وقداهتدت في التيه حيث عن الاما ن وأصبح الاعوان حظ طلوبها
بعـمود نار كان فوق خيامها يبدو ليجلي الشك عن مذبوبها
فيدلهـا بالسـير اما قوّضت وينيرها في الليـل فـي تطنيبها
ودعاء موسى أمطر السلوى لها والمنّ قوتاً فيـه سد سغوبها
وعصاه قد أجرت لها من صخرة صافي المياه طغت بفيض سكوبها
نزل الاله على الجبال له وأعـ طاه الشريعـة وهو في شنخوبها
مكتوبة بأصابع الخلاق في الـ احجار فهـو مبين لصايبها
وكذلك آريحيا بفعل عجيبـة حل الدمار بسورها وصقوبها

نفخوا بأبواق وطافوا حولها — فتقوضت دكاً لهول صخوبها
ومع الجواسيس الالى نزلوا بها — قد خامرت راحاب في ترحيبها
وكذا ابن نون توقفت شمس الضحى — بصلاته عن سيرها وغيوبها
ليتم الفتك الذريع بفيئة — شجعت وخاب السعي مع تدريبها[1]

عود الى القسيسين

وعلى أضاحيك كذي استندت وقد — ترجو نوال النصر من ترغيبها
وأتت تكابر باختراع زخارف — تبغي اجتلاب النفع من تحبيبها
وعدت بجنات النعيم لطائع — وتوعدت بالنار في ترهيبها
حيث الشياطين التي تغوي الورى — تسطو على الهلكى بيعلزبوبها
لما رأت شمس التمدن أشرقت — وضلالها يبغي دوام قتوبها[2]
بمحاورات الشهم فولتير التي أ ؛ — دفعت مياه الحق من انبوبها
فيها قد افتضحت وبان سقامها — وبدا خفيّ جراحها وندوبها
اذ عن صراط الحق زاغ مسيرها — وإلى احتشاد المال فرط لغوبها
وأراعها منه تهدم عرشها — وتزعزع الاركان بعد رتوبها
هرعت لتدرك فائتاً فترده — هيهات قد ولى زمان رحوبها
قنطت وقد أبدى الهدى بهتانها — كقنوط نفس من فراق حبيبها

---

(١) كل مامرّ بك هنا هو اشارة الى قصص التوراة التي هي اليوم بين أيدي النصارى واليهود

(٢) وهذا رأي من هذا الشاعر الكبير يؤيد رأينا في ان الكنيسة كانت عدو للتمدن ومن هذا البيت يظهر ان الشاعر استقلّ بفكره عن الترجمة لمدحه معامه هدفه لتبي ولذكره بعض حوادث جرت بعد عهده

جزعت بحزن لابتذال حجابها   وتهتك الاستار عن مكذوبها

عبراتها تجري لعابر وقتها   مع لطم أوجهها وشقّ جيوبها

جمعت برومة جمعها وتقاطرت   تدعو التئام أولي الدها بضغيبها (١)

وتصيح ياأهل الكنيسة بادروا   لقيام دعوة ربكم مصلوبها

يادار ندوتنا لفحص الدين هل   من عودة يرجى رجوع مريبها

أيام نسلب مال من كفروا ونحـ   ـرق جسم عاصينا بحرّ لهيبها (٢)

فالدين مفتقر لحلّ مشاكل   وخلاص قائبة له من قوبها

لنرى مبادئ رأيتا منبثة   في الارض فاسد قولها كمصيبها

تسري بمن جهلوا حميا وهمها   ويدبّ في الحمقى رديّ دبيبها

وبكل ذا ترجو ثبات دعائم   مادت بها ودنا أوان ذهوبها

تسدي الثناء لكلّ فدم دأبه   تأييدها والقرع في ظنبوبها

فتحوم كالغربان تنشد فائتاً   منها وقد ملئ الفضا بنعيبها

أنى اختزاء النور مهما حاولت   رتق الفتيق وأين [illegible] ثقوبها

والله عالم سرنا لا يرتضي   فيما افترت ويسرّ [illegible] تخ[illegible]بها

كل البلايا والشرور اتت بذى الـ   ـدنيا وها التاريخ من تحزيبها (٣)

---

(١) يشير الشاعر الي المجمع الذي جمعه البابا قبل ذلك

(٢) اي ايام ديوان التفتيش

(٣) اي ان كل بلايا وشرور الدنيا كانت من تحزبات القسيسين وهذا الذي اردنا اثباته فأين محاربي الاسلام المثبتين ان المدنية من فضل النصرانية

الانتقال الى السياسة

وكذا الملوك فليس ينكر ماجرى فينا من استبدادها ووثوبها
او جور من فتح الممالك عنوة وبغى على سكانها وغريبها
فبنصره خزل العلوم واخربت تلك البلاد جيوشه بحروبها
اودى بأسباب المعيشة بطشها وعلى التجارة سدّ أصل دروبها
نزل البلاء على الفلاحة والبوا رفاحطات بغراسها وحبوبها
وتقشعت سحب النجاح وان سقت تلك السباخ المزن من شؤبوبها
ذبح العباد على الوهاد بظلمه وسقى المهاد دماءها عن صوبها
فذوت جرائيم الفلاح لمسفه وبدا لما سقيت جفاف رطيبها
قلمَ الخضوع لذي البغاة ومالها عجباً تتيه بتاجها وقضيبها
ام كيف نحمل جورها ونقادرغ ماً مرتضين بغمرها كنجيبها
وبمَ ترى فضلت على كل الورى وسمت على تحريرها ولبيبها
باللحظ أم بالسمع أم بالذوق أم باللمس أم بالشمّ فضل حسيبها
هل انها الا اناس مثلنا وبناومنا الحزب في تغليبها
فالجيش من أولادنا اقتالها والبذخ من أموالنا لمعيبها
حازت نفائس مايرى فوق الثرى وتفاخرت بمتاعها واتوبها
الخزّ والديباج أضحى لبسها وغدت كرام الخيل من مركوبها
فتنافست فيما حوت من سابق وتعنت بنجيبها وجنيبها
لولا اختلاس الكلّ من اتعابنا لغدت تموت بجوعها وبلوبها
واكنت تنظر كيف دون مساعد تسطو وأيّ مهابة لرهيبها

اذ في الوغى يبدو نبوّ ضرابها … ويبان في الهيجاء جبن ضريبها
لكنها بالمكر سادت مذ غدت … كلّ الملا تعنو لبطش مهيبها
وغدا على كل الوجوه وجومها … يبدو فماد بشوشها كقطوبها
ولما اذلّ من العباد رقابها … ارجاف واشيها وخوف رقيبها
خطفت سموم الظلم صوت خطابها … لما اشتكت من عصفها وخطوبها
اذ تلك ريح زعزع نكباؤها … الوت بهم عن رشدهم بنكوبها
غدت الورى صرعى كأن عذابها … صهباء يسكر مره كعذيبها
عجباً فهل غفلت لخبث مهبها … ام هل ترى قد حان وقت هبوبها
ياغافلون تنبهوا من رقدة … طالت لسمد الوحش في تأديبها
فيها قد افترستكمو مذ كشرت … عن شرّ انياب لهول نيبها
هيّ انهضوا وبطردها اجتهدوا فقد … ساد الدمار وعمّ من تخريبها
اي لا ابالكمو اخلعوا الانيار أذ … جارت على اعناقكم بلثوبها
وليحكم الجمهور من عقلائه … قوم تراعي خيره كنسيبها
ولتستوي كل الحقوق تعادلاً … فيعود صوت قصيرها كاربيها
حتى ترى كل الورى فوق الثرى … بالامن يرعى شاتها مع ذيبها

نقول في مثل هذه اللهجة ضد العرش والهيكل التي استعملها فولتير وتلاميذه الاحرار من بعده قدروا على رفع نير الاستبدادين الديني والسياسي

وبعد فان هذا الناظم الكبير لم يسلم من شر القسيسين فانه عند نظم قصيدته كان نزيلا في باريس ثمّ بعد ثلاثين عاماً رجع الى وطنه في الشام فوشى به القسيسون الى الحكومة بانه من انصار الحرية مستشهدين بهذه القصيدة فاخذ الرجل وسجن وما زال سجيناً الى أن مات في سجنه شهيد الحرية فتأمل

الفصل السابع والعشرون

في التأثير الحسن الذي تمّ بعد ذلك

وبعد أن تقوضت الملكية بفرنسا انطلقت السن العلماء وازهر العلم ورجع البابوات والقسيسون عن استبدادهم ووقفوا حيارى لا ينبثون ببنت شفة الا ما كانوا يدسونه دساً لانهم عرفوا ان الشعب ولا سيما في فرنسا قد تنور واصبح عالماً باحوالهم ويدلك بالاكثر عن اهمال الشعب لرجال الدين ان نابليون بونابرت لما اراد ان يطلق امرأة ويقترن بعشيقته فطلب من البابا السماح له بالطلاق في الكنيسة [illegible] الزوجة اصبحت بين الموسات وامتنع البابا عن تلبية نداء الامبراطور واراد أن يستعمل سلطانه الديني لحرمه فما كان من نابليون الا ان ساق جيشه على رومة فغزل وعين ولده الصغير ملكا لها ومسك شخص البابا واهانه وصفعه كفاً وامر بسجنه كل ذلك والشعب ساكت صامت لا يحرك ساكناً ضد امبراطوره بينما كان قبل خمسين سنة من هذا الحادث يثور ثائره اذا حدث اقل تعدي على واحد من القسيسين فتأمل

على أن هذه النهضة التي تمت في فرنسا لم تعم كل البلاد الكاثوليكية فظل كاثوليكيوا النمسا والمانيا واسبانيا على قديم طاعتهم الى الكنيسة مع بعض التوسع من الشعب والتساهل من الاكليرس اما البلاد البروتستانية واهمها انكلترة فان الحرية الفكرية انتقلت اليها سريعاً وتاصلت في نفوس اهلها تاصلا اوصل شعوبها كانكلترة واميريكا والمانيا الى ما نرى اليوم من التقدم العلمي الباهر مع واسع الحضارة

واذا بحثت في تراجم اشهر علماء القرن التاسع عشر الاوربيين لوجدتهم جميعاً من الغير خاضعين لتعاليم المسيحية بل كل الذي قرروه مالا ترضى به كنيستهم كمذهب النشوء والارتقاء وكقولهم ان الامراض كلها مسببة عن مكروبات والى غير ذلك من الاقوال التي لايرضى عنها الدين النصراني وبالاحرى رجاله لان الدين الصحيح لاينافي العلم الصحيح

وفوق ذلك فان مورخيهم نبشوا الدفائن وأظهروا سيئات رجال الدين ونشروها واحدة واحدة ولم يكتفوا بذلك بل جسموها وعظموها بروايات وضعوها لذلك وقد طالعنا بعض روايات منها وكنا عند تلاوتها نستعيذ بالله من هؤلاء الرجال الدينيين وما عملوا من ذلك رواية البابا اسكندر السادس وقد ترجمت الى العربية وطبعت في مصر وهي تباع في المكاتب لمن يطلبها ويستطيع قارئها أن يقف على بعض الشيء عن اعمال أولئك الرجال الدينيين

وغاية مانقوله الآن هو ان هذه الحركة الثورية «ضد العرش والهيكل» أي ضد الاستبداد الديني والمدني في أوربا هيأت الافكار الى الرقي العلمي الذي نجمت عنه المدنية الاوربية التي نشاهدها الآن ونعجب بها أيما اعجاب فهل يستطيع مكابر بعد ذلك ان ينسبها لفضل النصرانية ويحكم على الاسلام بعدم قبوله المدنية واستعداده لها ؟ ؟ . فتقرر معنا اذن أن نهضة أوروبا العلمية والمدنية لم تكن بطبيعة دينهم ولا هي بسعي رجاله بل بالعكس كان رجال الدين النصراني عاملين على التضييق على العقول وابقاء الناس في همجيتهم وجهالتهم وما نزعوا عن عقولهم صدى الهمجية والجهل الا عندما نزعوا منها أولا صدى السلطة الدينية فالاستبداد المدني ولا نحب أن نتوسع في ذلك اكثر مما توسعنا لاننا وجدنا في هذا القليل كفاية

الفصل الثامن والعشرون

التعصب في الاسلام والنصرانية

ومن الاسباب التي يرمي بها الافرنج ديننا الحنيف بعدم ملاءمته للحضارة نسبتهم التعصب اليه حتى ان ما نسمعه من مخاوف الاوروبيين من التعصب الاسلامي الذي يتخيلونه لما يصور لقاريء جرائدهم ان المسلمين وحوش مفترسة وجدت لاهلاك الجنس البشري وان وجودهم خطر على الانسانية هكذا يصور كتاب الاوربيين معاشر المسلمين لقرائهم في أوروبا وليت الامر قد قصر على الاوروبيين وهم بعيدون عن مواطن الاسلام على انه لم يقتصر عليهم بل تعدى الى النصارى واليهود الساكنين في الشرق بجوار المسلمين الذين يعلنون دائماً أبداً بأن المسلمين متعصبون وأما النصارى واليهود فمتساهلون اوانهم متعصبون لمقابلة الشرّ بمثله (!!!) والذي يقول غير ذلك فهو بغير نخوة ولا دين ولا قومية ولا وطنية ووجب عليه اللعنات المؤبدة والاحتقار العام من الرأي العام النصراني واليهودي « كذا »

هذا ما يجول في صدور جيراننا المسيحيين واليهود على أثر ماراوه من مفاسد الاحكام في البلاد الاسلامية لهذا العهد الاخير فنسوا سابق عهدهم باجدادنا في صدر الاسلام كما تناسوا أو لم ينتبهوا الى الاسباب التي حملت المسلمين على تغيير ما بأنفسهم من ذلك التساهل المحمود الذي تفرد فيه دينهم يوم كانوا يعطفون على أهل الذمة ويخفرون ذمامهم ويصونون أموالهم وأعراضهم ويطلقون لهم الحرية في دينهم وعباداتهم الى آخر ماهو مسطور في التاريخ

يقول الناس في كل مكان (ليس التعصب بمحمود) ويقولون ايضاً (انه أثرمن آثار الهمجية)ونحن نرى رايهم فيما يقولون ونتفق معهم باستقباح هذه الخلة الشنعاء ونتمنى لو يزول كل اثر للتعصب من هذا الوجود ولكننا نشترط على ذلك شرطاً واحدا وهو (ان يزول التعصب من العالم باسره مرة واحدة) اما ان يزول من امة ويبقى في غيرها فان تلك الامة التي تتساهل مع غيرها تبيد وتضمحل لا محالة لان احتكاك الامم في هذا العصر الذي تسهلت فيه اسباب الانتقال بفضل البخار اصبح كثيراً وتزاحم الامم على الارزاق ليس مما يستخف به ففي مثل هذه الحالة ان الامة التي يزول منها التعصب الذي يربط افرادها ببعضهم ينفرط عقدها لا محالة

ومما يقرب من هذا المثال ما رايناه منذ اربع سنوات فان فرنسا عند ما اتفقت مع انكلتره على ما بينهما من الاختلاف على المسائل الشرقية كان من جملة هذا الاتفاق ان تطلق يد فرنسا في مراكش فقام الامبراطور غليوم يرغي ويزبد ويهدد فرنسا بالحرب وقامت هذه الجمهورية تعبيء الجيوش وتستعد للنزال دفاعا عن حوضها فما كان من اكثرية الشعب الفرنساوي الا انهم قاموا يعارضون الحرب باسباب اذا قرأها المفكر يجدها حكيمة لما في الحرب من هلاك النفوس وخسارة الاموال وايقاف حركة التجارة ولكن اذا نظر الى ما وراء ذلك وجد الحرب ضرورية للفرنسويين مهما كلفتهم من الخسائر ليفوزوا باستقلالهم اولا وببقاء غنائمهم في ايديهم ثانيا وانهم اذا احجموا عن الحرب عملا باراء اولئك النظريين لاصبحوا بعد قليل محكومين من الالمانيين .

واحسن ما كتب وقتئذ مقال لكبير في الفلاسفة السياسيين فانه قال:

(اننا لا ننكر على الفرنسويين رقيهم وتقدمهم العلمي والعقلي وانهم سبقوا العالم في ذلك ولكن الذي ننكره عليهم هو سبقهم للعالم باسره فان المبادي التي بينها الاشتراكيون عندهم بوجوب الامتناع عن الحرب في الوقت الذي تتهددهم فيه المانيا بالحرب ستفضي بهم ولا شك الى ضياع استقلالهم ومجدهم وعليه فاننا نحكم رغماً عن كل الحجج التي يبنوها بتسفية رأيهم الا اذا اقنعوا العالم باسره بوجوب الامتناع عن الحرب بحيث تصبح كل الشعوب اخوة وهذا في الوقت الحاضر مستحيل)

ونحن أيضاً على هذا القياس يمكننا ان نقول ان المشير على أمة من الامم بالتساهل مع غيرها في الوقت الذي نرى فيه كل الامم متعصبة فهو يشير عليها بالفناء العاجل لان ماحيلة الامة المتساهلة بين الامم الدالة كل أعمالهم على تعصبهم عليها انها اذا لم ترتبط برابطة التعصب مع افرادها ضد المتعصبين عليها تصبح ولا شك عرضة للدمار والبوار بتسطي الغير عليها

ان النصارى في الشرق والغرب قد فتحوا التاريخ وأخذوا يعددون مساوي المسلمين وما أظهروه من التعصب ضدهم على انهم لم يروا في ذلك التاريخ مايشين سمعة المسلمين على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولا على عهد الخلفاء الراشدين فالامويين في الشام فالامويين في الاندلس فالعباسيين في بغداد بل على عهد الذين بعدهم من الملوك المسلمين في الاجيال التي يدعوها المسيحيون أنفسهم بالاجيال المظلمة

ونحن لانعرف ماذا نقول في هذا البحث فان فظائع الدول المسيحية التعصبية تربو كثيراً على فظائع الدول الاسلامية التعصبية وبعبارة أوضح ان ماوجد في تاريخ المسيحيين من الفظائع لم يذكر مثله أو بعضه في تاريخ

المسلمين كما قال اللورد كرومر نفسه في كتابه المشهور «مصر الحديثه» الذي ملأه طعناً في المسلمين والاسلام فليس في تاريخ المسلمين مذبحة كذبحة القديس برتلماوس ولا محاكم كمحاكم ديوان التفتيش وما سبق للمسلمين ان استأصلوا النصارى من صقع لهم او مصر كما استئصل المسلمون النصارى من الاندلس فلم يبقوا فيها منهم دياراً وَلا جرت عندهم مذبحة على النصارى ذبحوا فيها النساء والاطفال كما ذبح الكاثوليكيون البروتسطان نساء وأطفالاً في باريس في المذبحة التي تقدم لنا ذكرها

واذا كان المسيحيون اليوم يطعنون على المسلمين بان دينهم دين تعصب وغير موافق للمدنية لالعلة سوى لجمود المسلمين وأقفال باب الاجتهاد عندهم فما الذي يقوله المسلمون عن الدين المسيحي ياترى (؟؟) أيلامون اذا قابلوهم بالمثل وفتحوا الانجيل وقرأوا على النصارى من آيات كتابهم مايأمرهم صراحة بالتعصب أفليس دينهم يعلمهم ان يترك الابن أباه والاخ أخاه ؟؟ أليس انجيلهم يروي لهم عن سيدنا عيسى عليه السلام انه لم يأت ليلقي سلاماً بل سيفاً ؟؟ثم ماذا نقول عن تعصب النصارى وقد سبق فأشرنا في هذا الكتاب ان تعصب النصارى لم يقتصر على المسلمين واليهود بل على بعضهم بعضاً حيث تقاتلوا فتفانوا لاختلافهم في بعض اعتقاداتهم التفسيرية التي يقرون هم أنفسهم انها من وراء المدارك البشرية

ولعمري اذا كان النصراني يكفر أخاه النصراني ويحكم عليه بالخروج من الدين لانه ليس على رأي كنيسته فما قولك بالامم الغير نصرانية في نظرهم واذا كانوا يكفرون كل من لايعتمد من الماء والروح فكيف يعاملونهم؟؟ ألا يعاملونهم بكل احتقار واذلال معاملة المؤمن للكافر ؟؟

على اننا نرى ان البحث في التعصب النصراني بعد كل هذا الذي ذكرناه يصبح كتحصيل حاصل فان هجومهم باسم الدين على المسلمين في بيت المقدس بحروبهم المشهورة باسم حروب الصليبين كافية وحدها لاثبات وصمة التعصب بالنصارى واذا أضفنا اليها هجومهم على الاندلس وتنكيلهم بالمسلمين هناك ظهر للوجود تعصبهم بأكمل معانيه واننا لا نستغرب من النصارى هذا التعصب طالما هم متبعون في انجيلهم قاعدة وجوب اشهار السيف ضد الخارجين عنهم

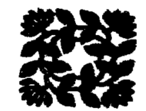
اما نسبة التعصب الى الاسلام وانه في طبيعته فهو ظلم محض لهذا الدين الحنيف وجهل محض من قائله أو ان قائله هو من المتعصبين فان الذي يفتح القرآن الشريف يجد من شتات الآيات المقدسة الآمرة بالتساهل مالا يبقى معه مجال للظن بامكان وجود التعصب في المسلمين فقد جاء في القرآن « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن » وجاء فيه أيضاً « لاا كراه في الدين» ومثل ذلك كثير

وفضلا عن هذه المبادي العمومية فقد أوصى القرآن الشريف بالنصارى واليهود كثيراً وكان في الاحاديث النبوية مايؤيد ذلك وفي سير الخلفاء الراشدين والامويين والعباسيين مايدلك على ن المسلمين وضعوا هذه القواعد موضع العمل وساروا عليها فأين هو التعصب الاسلامي ؟؟

نعم لا يسعنا ان ننكر بان التعصب قد دخل على المسلمين بعد الحروب الصليبية لا لاسباب دينية بل لأخرى سياسية فأن المسلمين رأوا بام العين هجوم الصليبيين عليهم بجهاد ديني وانهم قادمون عليهم ككفار فقابلوا المثل بالمثل عملاً بقوله تعالى «ومن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدي

عليكم » وزد على ذلك ان تلك الحروب أفضت الى جمودهم واضاعة العلم من صدورهم فضاقت عن تحمل اعتداء المعتدين عليهم باسم الدين ومع ذلك كله ظل المسيحيون بينهم تحت سلطانهم فلم ينهبوا أموالهم ولم يحملوهم على الجلاء عن أوطانهم ولم يسبوا اعراضهم ولم يهدموا كنائسهم وغاية ماهنالك عاملوهم بالشدة لانهم رأوا منهم مايدعو الى الريبة نعم فقد رأوا اخوانهم ومواطنيهم النصارى ممالئين للصليبيين الافرنج على البلاد بينما هم يتفانون في الدفاع عنها فكرهوهم كراهة اعداء سياسيين لا كراهة اعداء دينيين وكان هذا الكره في بدئه ليس عاماً شاملاً على انه اتسع لوجود الفئتين في بيئة قد خيم عليها الجهل

ولزيادة البيان والايضاح في هذا الموضوع ننشر على القراء الكرام الفصول الآتية :



الفصل التاسع والعشرون

في بعد التعصب عن الاسلام

أن الاسلام قد انفرد عن نزعة التعصب وقام لتقرير مبدأ التساهل في هذا العالم بدليل الايات القرآنية الكريمة الصريحة في ذلك وقد اوردنا بعضها في فصول هذا الكتاب والذي يراجع القرآن الحكيم يراه مصرحا بما هو اكثر من ذلك

ولعمري ان ديناً يأمر تابعيه ان لايجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن وان لهم ما للمسلمين وعليهم ماعليهم وان من الواجب على المسلمين حماية من دخل في حكمهم من الامم التي لاتدين بدينهم وفوق ذلك أجاز للمسلمين مواكلة أهل الكتاب والتزوج بالكتابيات ان ديناً هذه تعاليمه من البديهي لا يبث في نفوس تابعيه روح التعصب بل بالعكس يبث في نفوسهم روح التساهل والالفة الى أبعد غاياتهما ومراميهما

ثم ان نسبة التعصب لدين هذه مبادئه وتعاليمه لهو الظلم المحض والجور الذي مابعده من جور وأين هو التعصب ياترى في قوم هم ملزمون ديناً بحماية من دخل في حكمهم من الامم التي لاتدين بدينهم؟؟ واين هو التعصب في قوم لايرون باساً من مواكلة من لايدين بدينهم ولا الاقتران ببناتهم فيقترن المسلم بالكتابية وهو ضامن لها سلامة دينها ويضع بين يديها بيته وممتلكاته ويعهد اليها بتربية أولاده الى آخر ماهنالك من العلائق الزوجية

اذا أردنا ان نحكم على دين من الاديان هل يبث روح التعصب بصدور تابعيه أم لا فما علينا الا ان ننظر الى تعاليمه فيما يتعلق بعلائق أهل ذلك الدين مع غيرهم ممن لا يدينون بدينهم وعلى هذا القياس نبريء الاسلام من كل أثر للتعصب لانه كما رأينا لا يترك مجالا لتابعيه ان يمتهنوا غيرهم بل بالعكس يجبرهم على مودتهم ورعي ذمارهم ويسمح لهم بمواكلتهم والاقتران ببناتهم

ومن هذا الوجه يتفق الاسلام مع النصرانية لان الانجيل أيضاً يصرح لتابعيه ان لا يدينوا سواهم وان يوءكلوا غيرهم ويتزوجوا منهم ويزوجوا بناتهم لهم . ولكن الفرق بيننا وبين النصاري انهم لم يطبقوا ما بانجيلهم على أعمالهم لان روساءهم الدينيين الذين بايديهم الحلّ والربط قد حرموا عليهم ذلك خلافاً لنا لاننا طبقناه حرفيا وجرينا عليه عند ما كنا لا نعمل عملا ما الا اذا انطبق على روح الاسلام

واما اليهود فيخالفون النصارى والمسلمين في ذلك تماماً فهم يشددون النكير على الاجانب عنهم وينفرون تابعيهم عن معاشرتهم ومواكلتهم والزواج منهم والتزويج لهم ويعتبرونهم نجسين وكل ذلك ظاهر صريح في التوراة التي بين أيديهم المنسوبة لسيدنا موسى عليه السلام

والظاهر ان اليهود قد اتبعوا السنن الوثنية في ذلك لان الوثنيين حتى وقتنا الحاضر يستنجسون غيرهم حتى انهم يستنجسون بعضهم بعضاً

والفضل بما عند النصارى من مواكلة غيرهم والزواج منهم ليس عائداً للانجيل بل لقديسهم بولس وهو على ما يظهر كان رجلا حرّ الفكر فخطر برسائله للمسيحيين وهم يعتبرونها اليوم بحكم الكتاب المنزل ان يدينوا سواهم

كما أحلّ لهم كل شيء الا الدم والمخنوق وذبائح الاوثان واللحم الميت

وعلى هذه القاعدة اذا نظرنا للنصرانية على عهد زهوها « لان تاريخها في بدء نشأتها معدوم » نراها قد سارت على مبدأ تعصب مخيف مريع ناسية معه كل أوامر قديسها بولس القاضية بالتساهل أو ان القسيسين بسلطان الحلّ والربط أجازوا ذلك التعصب المخيف فتبعهم فيه النصارى او انهم رأوا تضارباً بين قول سيدنا عيسى عليه السلام « ماجئت لالقي سلاماً بل سيفاً » وقول بولس « من أنت لتدين عبداً اجنبياً » ترجحوا قول سيدنا عيسى وكيفما كان الحال فقد أرانا النصارى من ضروب التعصب المخيف ما لم يكن يخطر على قلب بشر

أما المسلمون فاذا أردت أن تقف على مبلغ تساهلهم فما عليك الا أن تقرأ الوصية النبوية على صاحبها أجل صلاة وأزكى تحية فقد اوصى باهل الذمة بصك مشهور كتبه الامام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بيده وأشهد عليه أبا بكر وعمر وعثمان رضوان الله عليهم أجمعين

ثم انظر الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وتساهله مع أهل الكتاب ترى العجب المدهش ثمّ وسع الخطوات نحو عهد الامويين في الاندلس والشام ترى المسلمين ما كانوا يعرفون للتعصب اسما ليس بمعاملة أهل الكتاب فقط بل باستخدامهم في مناصب الحكومة والاعتماد عليهم في شؤون المسلمين وكذلك كان الحال في بغداد على عهد العباسيين وأوضح حجة على تساهل المسلمين ما ترى في بلادهم من الاديرة والكنائس القديمة التي لا تزال حتى الآن قائمة في كل بلد اسلامي في الشرق بل ان هؤلاء المسيحيين واليهود الساكنين في بلاد المسلمين حتى اليوم لهم الحجة الناطقة بتساهل

الاسلام .

وعلى هذا ففضل الدين الاسلامي بالتساهل منسوب الى كتابهم الالهي ولا يستطيع ان ينكر ذلك الا المكابرون وهذا القرآن الشريف فيه البلاغ المبين .

الفصل الثلاثون

في ان التعصب يخالف أعمال المسلمين

ان الشريعة لا يكفي ان تسن بل يجب ان تضع في موضع التنفيذ لتكون بالفعل شريعة فانك ترى في كثير من الممالك شرائع مسنونة وكلها عدل وفضل ولكنها حبر على ورق اذ ترى الحكام فيها يظلمون الناس ويعاملونهم بالشدة مع ان قوانينهم لا تجيز ذلك بل تحذره تحذيراً صريحاً

ومن البديهي انه لا يعبث بالشريعة الا الذي له سلطان على العبث بها ولذلك رأى الناس في هذا العصر لاخير ان يقيدوا الملوك ويجعلوا الحكم شورى لتكون قوة الشرائع في ايدى الامم فلا يعبث بها الافراد

والانجيل مع الرسائل التي في ذيله فيها متسع كبير للتساهل ولو ان فيها أيضا مايدعو صراحة للتعصب ولكن تنفيذ ما في الانجيل عائد طبعاً للقسيسين الذين في أيديهم الحل والربط فهم يحلون مايشاؤون ويربطون مايشاؤون وفي هذا لم يبق ضمان لتنفيذ شريعتهم كما تسطرت لان المرؤوة القائمين بها وهم بشر معرضون للظلم والاستبداد كغيرهم وعلى ذلك فقد عدمت الضامن مع اطلاق يد منفذيها والقائمين بها في التفسير والتأويل

اما المسلمون فقد كانت شريعتهم مضمونة التنفيذ حتى ما كان للنبي صلى الله عليه وسلم ان يمد لها يداً وقد ذكر الله سبحانه وظيفته فسماه بشيراً ونذيراً وقد قال بعض العلماء عند ذكره للاحاديث الشريفة وبيان صحيحها من كاذبها « ان ماكان منها متفقاً مع كتاب الله أو على الاقل غير معارض له فهو صحيح وان ضعف سنده او كان مخالفاً لكتاب الله أو معارضا له فهو مكذوب وان قوي سنده » فانظر الى هذا المبدأ الصحيح الضامن لتنفيذ الشريعة الاسلامية والضارب على كل يد تعوث بها فسادا لان كثيرين طمعوا ان يلعبوا بالشريعة السمحاء ولما كان لا يتسنى لهم ان يمدوا يداً للقرآن الشريف الثابت وجوده على صحته كما انزل هدى للعالمين من عهد الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين مالوا الى اختلاق الاحاديث ونسبتها للنبي صلى الله عليه وسلم وكان ذلك منهم اما عن جهل بالدين أو عن غرض سيء في نفوسهم أو عن تغالي في التقوى ومع ذلك لم يحرم المسلمون من الهدى بالرجوع الى كتابهم الشريف الذي فيه سلمت عقائدهم من التصحيف والتأويل والتحريف



الفصل الواحد والثلاثون

﴿ في التعصب الاسلامي وسببه ﴾

أول ماورد في التواريخ عن التعصب الاسلامي ان الخليفة هارون الرشيد العباسي اكبر واعدل الخلفاء العباسيين أصدر امره بعد حربه مع الروم بوجوب تغيير زي نصارى بلاده عن زي المسلمين وهذا الامر اذا وقف عليه القاريء النصراني يتخذه حجة على المسلمين ودليلا على تعصبهم ولكنه اذا تمعن في ثنايا التاريخ يقف على سبب صدور ذلك الامر ووجد بأجلى بيان ان هارون الرشيد في اثناء حروبه مع الروم وقف على خيانة لم يكن ينتظرها من رعاياه المسيحيين الحائزين بظله على كل ضروب العدل والامان وذلك انهم كانوا ينقلون للروم ما يطلعون عليه من أسرار الخلافة وخوافيها فلما وقف الرشيد على هذه الخيانة الكبرى التي لو ظهرت من أي قوم في أي مملكة مسيحية كان عقاب أولئك القوم التنكيل بهم فاكتفى الخليفة باصدار أمره ذاك حتى لايسهل عليهم تجسس أمور المسلمين ولعمري ان فئة من أبناء الوطن الواحد تخون وطنها وتنقل أسراره لاعدائه لمجرد رابطة الدين فقط لخليق أن ينفر منها مواطنوها ويتعصبوا عليها في نظير تعصبها المشين

ومثل هذه الحادثة ليست وحيدة في بابها فان في نصارى الاندلس على ماهو صريح في تاريخهم حيث كانوا آكبرعون للاوربيين على مواطنيهم المسلمين بالرغم عن كل ماشاموه بينهم من محمود الرعاية وكذلك كان حال نصارى سوريا ومصر عند هجوم الصليبيين على المسلمين لاستخلاص بيت المقدس من أيديهم باسم الدين

واذا أنصف القاري اللبيب ووضع نفسه في موضع المسلمين ورأى ان اوروبا المسيحية تهاجم قومه باسم الدين وتجاهدهم مجاهدة المؤمنين الكافرين ألا يشعر بكراهتهم ويعدهم من المحاربين ثمّ ماذا تكون عواطفه نحو مواطنيه الذين يمالئون أعداء بلاده وبلادهم لرابطة الدين فقط ؟؟ هذا ما نترك الجواب عنه لضمير القاريء اللبيب

واذا تقرر لنا هذا وهو صحيح صريح لا نرى عاراً على المسلمين اذا كرهوا مواطنيهم النصارى ولا سيما في ذلك العهد الذي كان الناس فيه لا يعرفون غير الجامعة الدينية في الشرق والغرب والشرّ بالشرّ والبادي أظلم

على ان هذا التعصب الاسلامي الذي تولد عن التعصب النصراني قد ازداد في القرنين الماضيين كثيراً الى درجة ما عاد يركن فيها المسلم للنصراني أو النصراني للمسلم لتعدد الشواهد على ان النصراني في كل وقت يتمنى زوال دولة الاسلام وحلول أي دولة مسيحية محلها وهذه التهمة الثابتة على نصارى الشرق في كثير من الشواهد المحسوسة حملتهم كثيراً من المتاعب كما حملت المسلمين كثيراً من الخسائر الفادحة وأصبحت البلاد في حروب متواصلة أفضت الى خرابها لو لم يظهر في الدولة العثمانية رجال اصلاح قدروا على صيانة دولتهم وابقائها في عالم الوجود عزيزة الجانب عالية الكلمة

ولو انصف نصارى الشرق وقدروا قدر نعمة الاسلام عليهم وكانوا صادقين في خدمة وطنهم على مبدأ انجيلهم الذي يأمرهم باعطاء ما لله لله وما لقيصر لقيصر وعلى مبدأ قديسهم بولس الذي صرح لهم بوجوب الخضوع للسلطة وان كل سلطة هي من الله لعاشوا مع المسلمين اخواناً سعداء وكانت البلاد على احسن حال ولما استطاعت اوروبا المسيحية المتعصبة ان تنال من

سلطة الهلال مثالا ولكن ما الحيلة مع قوم متعصبين يبث فيهم قسيسوهم في كل صباح وعشية وجوب مناهضة المسلمين كاعداء للدين

الفصل الثاني والثلاثون

«في ان التعصب النصراني كان ولم يزل»

يقولون اليوم ان المدنية قد ارتقت وان القوم في اوروبا قد تركوا الدين والقسيسين واصبحوا من المتساهلين فما بال المسلمين لم يزالوا على قديم تعصبهم اما ذلك من تأثير دينهم عليهم؟؟ فهو اذن دين لا يصلح للمدنية

ولعمري ان هذه القضية السفسطية تضحك الثكلى لانها ذات نتيجة قيست على مقدمة فاسدة فهي فاسدة طبعاً ولبيان ذلك نقول: ان المسلمين حتى الساعة ما زالوا يرون التعصب النصراني الاوروبي متجلياً بكل مظاهره في معاملتهم للمسلمين والدول الاسلامية واليك البيان

في الشرق لهذا العهد دولتان كبيرتان متشابهتان في فساد احكامها واستبدادهما هما دولتا روسيا وتركيا والاولى دولة مسيحية تضم العدد الكبير من المسلمين واليهود والثانية دولة اسلامية تضمّ العدد الكبير من المسيحيين واليهود وقد قلنا انهما متشابهتان على سبيل التسامح لان في الحقيقة لا شبه بينهما في فساد السياسة بل ان البون بينهما عظيم جداً

نعم ان الدولتين مستبدتان وكانتا تحملان رعاياهما من ضروب المظالم والمغارم ما اهلك الحرث والنسل فهما متشابهتان من هذا القبيل اجمالا أما تفضيلا فان مظالم الدولة الروسية لرعاياها الغير ارثوذكسيين فضلا عن اليهود والمسلمين تفوق كثيراً مظالم الحكومة العثمانية لرعاياها الغير المسلمين واليك البيان

ن الدولة العثمانية مع اختلالاتها الادارية المشهورة كانت مساوية بين المسلمين وغيرهم في الحقوق حيث كانت محا كمها ذات أعضاء متساوين من المسلمين وغيرهم لا يفضلهم الا الرئيس الذي يكون مسلما وكذلك الحال في مجالس ادارة الولايات حيث يتألف من أعضاء طبيعيين وأعضاء منتخبين اما الاعضاء الطبيعون فهم الوالي والقاضي والمفتي وأحد الرؤساء الروحيين من الغير مسلمين والدفتر دار والمكتوبجي واما الاعضاء المنتخبون فمن الواجب ان يكون نصفهم من المسيحيين والنصف الآخر من الغير مسلمين وعدا ذلك فان وظائف الحكومة الكبيرة والصغيرة حتى الوزارة كانت مفتوحة على قدر الامكان في وجوه الغير مسلمين كل ذلك قد كان فعلا لا قولا اما قوانين الدولة فكانت قاضية بالمساواة والعدالة وكل ذلك بنعمة التساهل الاسلامي لان هذه القوانين مستخرجة كما يعلم العموم من الكتب الفقهية الاسلامية

اما المظالم التي كانت في البلاد العثمانية فكان مرجعها الاستبداد أو حكومة الفرد وكانت واقعة على رؤوس جميع الرعايا العثمانيين من مسلمين وغير مسلمين على السواء بل نقدر ان نقول انها كانت واقعة على رؤوس المسلمين أكثر من الغير مسلمين لفساد الحكومة لا لفساد القوانين

ومن البديهي كل ذلك قد كان قبل يوم ٢٤ يوليو سنة ١٩٠٨ أي قبل ان أعلن الدستور العثماني الذي بتنا نؤمل من وراء نشره ان تظهر الانوار الاسلامية في تلك البلاد بأجمل وأبهى مناظرها ان شاء الله

اما في روسيا فقد كان التعصب هو قائد الاستبداد للضغط على الشعوب الغير ارثوذكسية سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين أو يهود فسل البولونيين الكاثوليك عما لقوا من تعصب الحكومة الروسية واسأل المسلمين عما لقوا

وما زالوا يلاقون من شدة الحكام المسيحيين عليهم لا لسبب سوى لانهم غير مسيحيين بل أسأل اليهود وهم اكثر العناصر اضطهاداً من عمال تلك الدولة الظالمة وهلمّ جراً

نعم ان المظالم والمغاوم في روسيا أعظم كثيراً مما في بلاد الاتراك ومحاكمها ليس فيها أحد من غير الارثوذكسيين وكذلك وظائفها الادارية الا ماندر وفوق ذلك فان روسيا تجند اولئك المضطهدين من غير الارثوذكسيين من مسلمين ويهود وكاثوليك و بروتسطان وتجعل صفوفهم في طلائع جيشها وقت الحرب وفي أشقى بلادها وقت السلم لتزيد الضغط عليهم ولتعمل على ابادتهم

وحرية الاديان في روسيا معدومة فلا المسيحيون الغير ارثوذكس ولا المسلمون ولا اليهود هم احرار في اقامة شعائر دينهم على ما نرى ونسمع عن الامم الغير اسلامية في بلاد الدولة العلية

وكذلك ليس لرؤساء الاديان الغير ارثوذكسية في بلاد روسيا ميزة فالمطران والقسيس الغير ارثوذكسي والشيخ والحاخام يساقون الى محاكم الحقوق والجنايات صاغرين ويعاملون معاملة سواد الامة تلك المعاملة القبيحة بأيدي أولئك الموظفين المستبدين المتعصبين

وحسبك برهاناً على تعصب الروسيين مهاجرة الشعوب الغير مسلمة من مسلمين ومسيحيين ويهود وقد تركوا بلادهم الرحبة وملأوا أورباواسيا وأكثر هؤلاء المهاجرين هم اليهود والمسلمون الذين وجدوا في بلاد الدولة العلية العثمانية راحة وهناء بعد ذلك الضغط والهوان المسببين عن محض التعصب

قالوا ان الدول الاوربية لاتنظر الى الدين ولاتهتم بغير الانسانية كما يتشدق المتشدقون لكان من أقدس واجباتها أن تضغط على دولة الروس كضغطها على الدولة العثمانية بل أن تزيد في شدتها على تلك الدولة الواسعة التي تحكم كل هذه الملايين في اوروبا وأسيا ولكنها لم تفعل لا لسبب سوى للرابطة المسيحية التي تربط الاوروبيين بالروسيين كما انها لم تشدد النكير على دولتنا العثمانية وتعاون المنتقضين عليها من رعاياها للانسلاخ عنها الا لتأييد مبدأ قد وضعه سياسيوها أمام اعينهم وهو « إن تتلاشى كل سلطة المسلمين في اوروبا » وعلى هذه القاعدة قد سار سياسيو اوروبا من صدر الجيل التاسع عشر المسيحي

واول عمل كبير اتاه الاوربيون لمحاربة المسلمين في أوروبا هو دسهم الدسائس في بلاد اليونان التي كانت خاضعة للدولة العلية العثمانية وتحريض اليونانيين على العصيان وامدادهم بالمال والسلاح وهكذا اشتعلت نيران الحروب الداخلية في البلاد اليونانية وكادت الدولة تقضي على هؤلاء العصاة ببطش رجالها الصناديد وتنكل بصفوفهم وجموعهم لو لم تمد الدول الاوروبية اليونانيين بجيشها وترسل لمياههم اساطيلها الحربية وهكذا بفضل اوروبا المسيحية تمكنوا من الانسلاخ عن الجامعة العثمانية ونال الدولة من الضعف والخسائر بسبب هذه الحروب الشيء الكثير

ثم قامت روسيا لمحاربة الدولة العلية اولا وثانيا وثالثا حربا صليبية بدعوى الدفاع عن المسيحيين في تركيا وتخليص بيت المقدس من أبدي المسلمين وهي الدعوى التي حارب بها الصليبيون المسلمين في الاجيال المظلمة وكان في هذه الحروب من الدسائس الاوربية وخيانة الخونة من مأموري الدولة ورجا لها

العسكريين ما عاد على الدولة بالخسران وهكذا ملكت روسيا بعض البلاد العثمانية وحررت البعض الاخر

ولا ننكر ان بعضاً من الدول الاروبية عاونت دولتنا على روسيا ولكنها فعلت ذلك لا حباً بنصر المظلوم على ظالمه بل خوفا من روسيا نفسها وايقافا لها عن الاندفاع على اوروبا الوسطى ولذلك كان دفاعها ناقصاً غير كامل يدلك على ذلك معاهدة برلين الاخيرة التي كانت نتيجتها خسران الدولة بلاداً جديدة لم تكن مذكورة في معاهـدة سان استيفانو المشؤمة وربط الدولة بشروط تضرّ بها كثيراً وهكذا برهنت الدول الاوربيـة المسيحية على انهـا كانت ولم تزل متعصبة ضدّ المسلمين

ثمّ في سنة ١٨٨٥ مسيحية أقرت اوروبا علي ضمّ مقاطعة روملي الشرقية الى امارة البلغار التي اوجدتها محاربة روسيا بشكل من اغرب الاشكال وهوان تكون خاضعة لنا بالاسم ولكنها لم تدفع لنا قرشاً واحـدا من الجزية التي تعهدت بها ولم تراع لنا مصلحة بل كان همها دسّ الدسائس في ولايات البلقان ووالله لو لم تكن دولتنا الاسلامية لما عاون الاوربيون البلغاريين على الاستقلال الداخلي اولا وعلى هضم حقوقنا ثانياً وعلى ضمّ لروملي الشرقيـة اليها ثالثاً ولكن هو التعصب يركب صاحبه المركب الخشن لان اكثر الدول المجاورات للبغار يخشين هذه الامـة واهلها الغيظي القلوب والاعناق ولولا ان تجمعهم وهنّ جامعة الدين لما أعانوها على املاك العثمانيين

والانكى ما ظهر من التعصب المسيحى في الحرب العثمانية اليونانية فقد عرف الجمهور ان اليونانيين هم المعتدون على العثمانيين وانهم ما تجرأوا على هذا لا بتشجيع اوروبا المسيحية ولا سيما روسيا وما زالوا كذلك الى أن شهروا

الحرب وتجرد الحسام من غمده وهنالك ظهرت شجاعة العثمانيين وقوتهم وضعف اليونانيين وخوارهم ومع ذلك أبت أوروبا المسيحية ان تستفيد الدولة العلية من ثمرة نصرها لا لسبب الا لكونها مسلمة والا فهل سمع سامع عن دولة قد انتصرت ثم حرمت من ثمار انتصارها ؟ ؟ ارجعت اوروبا المسيحية المسلمين الفاتحين من البلاد اليونانية بعد ان اهرقوا في سهولها وجبالها الدماء الذكية وتوسطت ان تدفع اليونان لتركيا اربع ملايين من الجنيهات مع ان مصاريفها على الحرب بلغت العشر ملايين وفوق هذا كله نادت الدول الاوربية بفصل جزيرة كريت عن جثمان الجامعة العثمانية لا لسبب سوى لان اكثرية اهلها من المسيحيين ورهبت هذه الدولة من اعطاء الجزيرة لليونان لا من الدولة العثمانية وهي مجمعة على اضعافها بل من الرأي العام الاوربي الذي لا يخلو من من اصحاب الضمائر الحية على انها جعلت والي الجزيرة يونانيا توصلا لضم الجزيرة يوماً الى اليونانيين فتأمل

وعلى مبدأ الشيء بالشيء يذكر نقول ان الدول الاربع انكلترا وفرنسا وروسيا وايتاليا احتلان كريت بجيوشهن ومع ذلك لم يسلم مسلمو كريت من اعتداء اخوانهم ومواطنيهم المسيحيين فساموهم اشد حالات الاضطهاد والهوان تحت ظلال هاتيك الدول المسيحية القائمات على زعمهن لنصرة الانسانية فتأمل

والخلاصة ان التعصب المسيحي كان ولم يزل كامناً في صدور المسيحيين وان تعصب المسيحيين هو الذي ساق المسلمين الى التعصب دفاعاً عن أنفسهم وعن دينهم والشر بالشر والبادي أظلم والخير بالخير والبادي اكرم

الفصل الثالث والثلاثون

في الدستور العثماني والتعصب النصراني

يستشهد المدافعون عن النصرانية وتساهلها بالدستور العثماني وتأييد الدول الاوربيـة له وان الاوربيين النصارى لو كانوا حقيقة متعصبين على الاسلام لنصروا المستبدين الخونة من رجال دولتنا العلية توصلاً لهدم أعظم دولة في الاسلام وهي خلافة بني عثمان

يستشهدون بذلك استغفالاً للمسلمين الغير عارفين بداخلية الدولة والقوة الكبرى المحدقة بها على ان العاقلين منا يضحكون من هـذه الحجة الواهنة ولبيان موقف العثمانيين بازاء الاوربيين نقول :

ان الدولة العلية العثمانية ذات قوتين عظيمتين احداهما كامنة والاخرى ظاهرة أما القوة الظاهرة فهي بشعوبها الاشداء الذين يتألف منهم جيشها الغالب المنصور الذي شهدت له حروبه بمزيتين لم توجدا في غيره من الجيوش الاوربية اولهما ان الجندي المسلم يلقى المدافع ويخوض المعامع مستميتاً لا حباً بالوطن المقدس فقط بل رغبة بالشهادة في دفاعه عن وطنه المقدس لان دينه العمراني الالهي يعلمه بان الجهاد في سبيل دواته من الاعمال البارة التي تذهب بروح المستشهد فيه الى جنان النعيم وثانيهما ان الجندي المسلم يكتفي بقليل القوت وبسيط اللباس فهو لا يحتاج لى الخمر ولا الى اللحوم المقددة ولا ولا لانه يعلم انه سائر للجهاد في سبيل الله والوطن لا للرغد والرفاه

أما القوة الكامنة فهي بتعلق مسلمي الارض بالامامة العثمانية الكبرى والخلافة المحمدية العليا وهذه القوة استفادت منها الدولة العلية كثيراً فيما مر

ولا زالت تستفيد منها بقدر التفاتها للمسلمين

وتعلق مسلمي الارض بخلافتهم غير ناجم عن تعصب كامن في صدورهم كما يتوهم أعداء الاسلام بل عن حياتهم القومية وغيرتهم الدينية فانهم يعرفون جيداً ان خلافة بني عثمان هي اعظم دولة في دول الاسلام وعليها يتوقف تقدم وارتقاء أهل هذا الدين الحنيف واليها يلتجي المسلمون ان هم هاجروا بلداً لهم شاموا بها الضيم كما رأينا بمسلمي القوقاس وكريت وغيرهم وفوق ذلك ان المسلمين يجب عليهم ذمة ومصلحة أن يحموا الخلافة بسيوفهم بل بنفوسهم طالما هي حامية الحرمين الاقدسين

واذا تقرر لدينا هذا وهو حقيقة لا ريب فيها عرفنا سرّ بقاء الدولة حتى اليوم في الوجود مع تعصب أوروبا بجملتها عليها ومع الخلل الذي كان مستحوذاً على ادارتها الداخلية ومع تعدد أجناس ومذاهب واميال شعوبها ولكن الذين يجهلون هذا السرّ يتوهمون ان وجود الدولة حتى الآن نعمة كبرى الدول أو نتيجة اختلافها على اقتسام البلاد

والسياسيون في أوروبا يعرفون هذه الحقيقة كما يعرفون انهم ماقويوا على الدولة وسلخوا من املاكها الاوربية ماسلخوا الا بالدسائس التي دسوها في آذان الاهلين وبخيانة من استمالوهم من المأمورين الخائنين على ان المخلصين للدولة وأحرارها استمالوا النجباء من ضباط جيشها وقاموا جميعاً بطلب الدستور فنالوه ودخلوا في عهد جديد

فسرّ انتصار الاحرار في مملكة بني عثمان هو في استمالتهم الجيش وحرج الحالة التي وجدت فيها الدولة فسلم السلطان بمطاليبهم بسلام وانقلبت الحكومة هذا الانقلاب العظيم بغير سفك دم

اما الدول الاوربية فمن المقرر بديهياً انها لم تكن مسرورة بهذا الانقلاب لانها تعلم ان من ورائه رقياً محسوساً للدولة العثمانية يجعلها كما كانت قبل مائة عام في مقدمة الدول الاوربية حربياً ومالياً ونحن لانقول انها لو اجمعت على محاربة الدولة في وقت انقلابها لخابت سعياً ولكن الذي نقوله انها لم تقدر على جمع كلمتها لتضارب مصالحها السياسية والتجارية وذلك لان بعضهن يخشين من روسيا والمانيا يخشين روسيا ان تندفع بحكم الجوار من البحر الاسود الى اوروبا وهي كما سبق في الفصل السابق دولة همجية مستبدة ويخشين ايضاً المانيا لانها اليوم تزاحم كل الدول الاوروبية في تجارتها وقد توصلت بدهاء امبراطورها وخيانة الخونة من رجال دولتنا الى جعل بلادنا اسواقاً مفتوحة لتجارتها ومنافع طرقنا وقفاً على مهندسيها وصناعها وماليها فكان من الضرورة القصوى ان تقف انكلتره داهية السياسة بمعاونة الاحرار تسفيهاً لاحلام الالمانيين وخزلا لسياستهم وهذا الذي كان وتبعتها فرنسا في ذلك لاتفاقهما في المصلحة ووافقتهما روسيا ايضاً لعلمها انها لو ناوءت الاحرار الاتراك واشتعلت نيران الحرب في اوروبا لتطاير شررها الى بلادها وكانت قسمتها من وراء ذلك ضيزى

وعدا هذا وذاك فان هذه الدول الموالية للاحرار العثمانيين « انكلتره وفرنسا وروسيا » يعلمن حق العلم ان الاحرار عندما نهضوا لمناوأة دولتهم المستبدة نهضوا مكرهين مأيوسين فهم والحالة هذه لايصبرون على تداخل اوروبا ببلادهم بل يستفزون البلاد الى جهاد عام الله يعلم سوء ... لى اوروبا نفسها لان تحت ظلال الرايات الثلاث الانكليزية والفرنسوية والروسية العدد الكبير من المسلمين الموحدين الذين يرواحياة الدولة العثمانية ضروريا

وحيويا للاسلام

اما المانيا التي كانت تدعي صحبتنا وهي صحبة الذئب والخروف لم تغفل عن مناهضة الاحرار فرضت صديقتها النمسا على اعلان امتلاك البوسنه والهرسك وهما المقاطعتان اللتان كانتا في يدها على سبيل الامانة حسب قرار مؤتمر برلين وحركت البلغاريين على اعلان استقلالهم زاعمة انها بذلك تسوق الدولة الى حرب يضيع معها قوى الاحرار ولكن ساء فألها وخاب رجاها اذ تمكن الاحرار من تلقي هذين العملين بتؤدة وسكون وقابلوا اعتداءهما بالصبر وهكذا انخذلت السياسة الالمانية

فهذا ماجرى في حركة الدستور وظهر للعقلاء بان انتصار الدستوريين لم يكن عن تسامح من الاوروبيين بل بالرغم عنهم وانهم مازالوا متعصبين على الاسلام يتمنون ان تذول دوله وتضيع معالمه لاحقق الله لهم أملا

الفصل الثالث والثلاثون

في نتائج ما تقدم

ظهر لنا مما تقدم ان التعصب وجد في النصرانية بطبيعة تعاليمها الدينية وبتسلط رجال الدين ذلك التسلط الهائل الذي فاق حاخامي اليهود وكهنة الوثنيين ولعمري أي سلطة اقوى واعظم من سلطة الذي له سلطان على مغفرة الخطايا وامساكها والجنة والنعيم بين شفتيه فهذا القس صاحب هذا السلطان هو الذي اوجد التعصب في الانجيل وهو الذي وعظ به وعلم حتى يبقى الناس خاضعين له مؤمنين بدعواه ورغماً عن تحذير كتابه له بان لا يداخل في شؤون السياسة وان يزهد بالعالم ومافيه ابى الا الانخراط في سلك السياسيين وقبض بيمناه على صليبه و بيسراه على صولجان الملك أو بالاحرى على صوالج الملوك ودعاهم الى حرب عامة ضد الكفار المسلمين (كذا) [1] في الاندلس أولاً وفي الشرق ثانياً لاستخلاص البلاد المقدسة بلاد فلسطين من أيدي المسلمين وجعل علامة هذا الجهاد الصليب يسمه الجندي المجاهد المتطوع على صدره وهو ذاهب الى حرب المسلمين ولذلك دعيت حروبهم «بالصليبية»

كل هذا أتاه البابوات والقسيسون في اوروبا بينما كان ملوك المسلمين يخفرون ذمة النصارى الخاضعين لملكهم ويساوونهم بالحقوق والواجبات ويعاملونهم أحسن والطف معاملة مطلقين لهم حريتهم الدينية حافظين لهم كنائسهم واديرتهم واوقافهم مكرمين لهم قسسهم واساقفهم وكل

---

(١) كان البابوات والقسيسون يسمون المسلمين كفاراً وبهذا النعت يحرضون النصارى على محاربتهم فتأمل؟؟

من انتمى الى رجال دينهم فعل المسلمون هذا بغير اكراه ولا اضطرار ولا خوف يوم كانت كلمتهم هي العليا في عالم السياسة ويوم لم يكن في العالم بأسره دولة تقوى على الوقوف في وجه المسلمين ان جاروا او عدلوا فعلوا ذلك خضوعاً لاوامر دينهم وخضوعا امر آنهم الشريف المجيد وا تداء بالسنة النبوية على صاحبها أفضل صلاة وازكى سلام وتحيه

على ان المسلمين ليسوا من ارهاط الملائكة بل هم بشر ودينهم دين عدل وفضل يقول لهم «النصح لسان: من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم الآيه» فلما رأوا النصارى قد اجتمعت كلمتهم على المسلمين لا لسبب سوى باسم الدين وقاموا يحاربونهم ويجاهدونهم مجاهدة الكفار ورأوا فوق ذلك فظائع ما عملوه بمسلمي الاندلس نهضوا أولا للذب عن البلاد التي فتحوها بدماء ابطالهم ونشروا على اطلالها عمرانهم ومدنيتهم وما زالوا يجاهدون الصليبيين حتى ردوهم مخذولين مقهورين سبع مرات ولكنهم مع ذلك أبوا أن يعاملوا من أسروهم معاملة اسرى المسلمين في الاندلس بل تولوهم برحمتهم واحسنوا اليهم ولذلك آثر الكثيرون منهم البقاء في البلاد الاسلامية ولبثوا فيها على دينهم وما زال انسالهم حتى الآن في نصارى سوريا تعلم من القابهم وكناهم انهم من اصلاب اعداء المسلمين وتعلم من ذلك فضل وحلم اهل الاسلام

وكذلك لم يقم المسلمون لمناهضة النصرانية في بلادهم ولم ينكلوا بالنصارى كما نكل النصارى بالمسلمين في الاندلس فلم يبقوا منهم دياراً بالرغم مما رأوه من ميل مواطنيهم النصارى لنصرة اعدائهم الصليبيين عليهم بعامل التعصب الديني المخيف

الا أن المسلمين بعد هذه الحوادث لم يبقوا كما كانوا بل تأثرت قلوبهم

من مواطنيهم بعد ان رأوا منهم من الخيانة ضد اوطانهم واحتقروهم كما يحتقر الامين الخائن وعاملوهم بالازدراء والاحتقار هـذا كل مارآه النصارى في بلاد المسلمين بعد الحروب الصليبية وسر شر الحالة التي حدثت بين ابناء الوطن الواحد

ثم ظهرت لدولة العثمانية المجيدة وتجدد معها مجد الاسلام وارتفعت اعلام المسلمين ثانية وكان النصارى في ظل العثمانيين كما كانوا في ظل العرب كيف لا وقد خفر القرآن الشريف ذمتهم واوصى النبي الامين صلى الله عليه وسلم بهم خيراً وعندما فتح محمد الفاتح القسطنطينية أعطى القسيسين عهداً ايد به اوامر الاسلام بصيانة كنائس النصارى واديرتهم واوقافهم واعفائها من الرسوم واكرام قسسهم واساقفهم وبطاركهم واعفائهم من الضرائب والجندية وتمييزهم عن بقية الرعايا فلا يساق منهم أحد الى الحاكم الى آخر هاتيك الامتيازات التي لا يرى رجال الدين النصراني بعضها في الممالك المسيحية الا ان ذلك كله لم يؤثر على النصارى الخاضعين للخلافة العثمانية بل ظلوا ميالين بدافع الدين الى أعدائها كالروس والفرنسيس وأكثر ما تم من الحروب كان بخيانة هؤلاء النصارى لدولتهم وميلهم الى أعدائها

الا نرى ان روسيا حاربت دولتنا العلية ثلاث مرات لا سبب سوى لحماية المسيحيين ثم اذا نظرنا الى المذابح التي جرت في الشام سنة ١٨٦٠ ودققنا في أسبابها وجدناها من تأثير دسائس الاجنبية حيث وجد واتضح جلياً ان النصارى الذين هم الموارنة كانوا ميالين الى فرنسا ولا يزالون كذلك ، فخافت انكلترة ان تفوز دولة الفرنسيس على اكتاف الموارنة بتملك بيت المقدس وهو الامر الذي تمانع فيه جهدها فارسلت رسلها الى

الجبل واستمالت اليها الدروز وهكذا بفضل الدسائس اختلف الدروز والموارنة هناك وقاموا بثورة عجزت الدولة عن اخماد جزوتها قبل استفحال امرها وانتهى الشر بدخول العساكر الفرنسية الى الشام بامر الدول وجلائها عنها بهمة وذكاء ونباهة المرحوم فواد باشا الذي ارى الاوربيين ان في المسلمين رجالا لا يقلون عن نوابغ الاوربيين دهاء

على ان بعد هذه الحادثة واحتفاء المسيحيين بظاهر الفرح بالفرنسويين لم يستطع المسلمون مصافاة اخوانهم في الوطنية واعدائهم فيها فاحتقروهم أيضاً كما احتقر الاتراك في الاستانة والاناضول جيرانهم الروم لعدم اخلاصهم لدولتهم

ثم قامت الثورة الارمنية منذ سنوات معدودات وانجلت عن مذابح أهرقت فيها دماء الارامنة وخربت بلادهم وقام المتشدقون بالانسانية يطعنون على الاسلام ولو انصفوا الدرسوا المسألة وعرفوا سرها واقروا اولا كما اقروا أخيراً بان ثورات سنتي ١٨٩٥ ١٨٩٦ في بلاد الارمن قد انجلت عن نصر عظيم للدولة العثمانية حيث لم تبق من أولئك الناشزين من يفكر بالانسلاخ عن دولته

هذا كل ما كان في بلاد المسلمين واسبابه هو التعصب النصراني الذي جر المسلمين رغما عن ارادتهم وتعاليمهم الدينية الى ما لا يسمى تعصب الا على سبيل التوسع لانهم كانوا فيه مكرهين على مقابلة جيرانهم النصارى بمثل ما ما بلوهم به والشر بالشر والبادي أظلم

الفصل الرابع والثلاثون

التعصب الحقيقي

نتمنى لو كان عند المسلمين تعصب حقيقي نتمنى ذلك لانهم كانوا فيه يصلون الى نتائج تفيد جامعتهم القومية وتدعم ممالكهم واما راتهم كما دعم التعصب الاوربي ممالك اوربا وافاد الاوربيين مالياً وأدبياً

ان التعصب الحقيقي لا يكون باحتقار المسلم النصراني بحيث لا ينهض له اذا دخل عليه بل يكون بالاغضاء عن معاملته فلو فعل المسلمون ذلك وامتنعوا عن معاملة الاوربيين واهملوا متاجرهم التي ملأوا بها اسواق المسلمين واجتهدوا باحياء الصنائع في بلادهم واقتصروا عليها لكانوا في ذلك افادوا بلادهم عمراناً ونفوسهم ثروة

لو فعل المسلمون ذلك لما كانوا معتدين على أوربا بل كانوا عاملوها بمثل عملها فانك ترى الاوربيين اكثر الناس تعصباً من هذا القبيل ففي بلادهم لا يسمحون اصالة بادخال المصنوعات والمحصولات الاجنبية الا بضرائب ومكوس باهظة ليحولوا دون رواجها وفوق ذلك ترى الاوربي منهم النازل في غير بلاده يجتهد كثيراً في ان يحصر كل خيراته بابناء جلدته فهل عند المسلمين شيء من ذلك .

لقد سحنا في البلاد الاوربية كلها فوجدنا هناك حب الاثرة متملكا على أفئدة الجميع فالفرنساوي يحاول ان يستفيد من غيره وان لا يفيد غيره والانكليزي كذلك والالماني كذلك وهلمّ جراً ولا تظن في بلد من هاتيك البلاد تروج صناعة بلد آخر الا اذا كان لابد منها وما في البلد ما يغني عنها واذا

نظرت الى المكوس المضروبة على المصنوعات الاجنبية لوجدتها باهظة جداً فاذا تدبرت ايها الاخ الحبيب هذا كله لعرفت كيف يكون التعصب الحقيقي المفيد حيوياً للبلاد واهلها

ولا اذهب بك ايها القاري الكريم الى اوربا لترى ما رأيت بل اكتفي ان أطلب منك ان تراقب من حولك من الاجانب النازلين في ارضك وهم كثيرون بحمد الله فهل ترى منهم من يقبل على الصناعة الوطنية ؟؟ تقول أن ليس لدينا صنائع وهو قول حق فانظر هل ترى منهم من يستخدم وطنياً اذا وجد من ابناء جلدته من يقوم بما يحتاج اليه ولو باجرة اكثر ثمّ اذا دققت في مراقبته ترى ان مشترياته كلها من عند ابناء جلدته الا اذا احتاج لشيء لا يتاجر به اهل وطنه حينئذ يقبل على الوطنيين مرغماً ثمّ سرح طرفك بابناء بلدك فلا تجد منهم من يهتم بهذا الامر الحيوي بل ان الكثيرين منهم حبا للتقليد أخذوا يقفون آثار الافرنج فضاعت خيراتهم الى الاجانب وما ذلك بجديد في العالم فان من القدم المغلوب مولع بعوائد الغالب على ما قرره الفيلسوف ابن خلدون

يدافع الاوربيون عن تعصبهم هذا بقولهم انه تعصب وطني وان تعصب المسلمين تعصب ديني ومع ان هذا التعصب المضرّ حقيقة بالمطالب العامة لا وجود له عند المسلمين بل بالعكس ان المسلمين اكثر الناس قاطبة تساهلهم من هذا القبيل حيث كانوا من القدم يستخدمون في دوائرهم من صيارفة النصارى ويعاملونهم بمتاجرهم ومحاصيلهم ومع ذلك فان فضل الاسلام ونعمه ان ساوى بين المسلمين فابطل اصلة هذه المادة المضرة مادة التعصب الوطني من العالم الاسلامي

ان الاسلام كدين الهي يعتبر الناس كلهم أخوانا له فهو من الوجهة الدينية لايقرر ميزة بين أجناس البشر كما ميزت التوراة بين اليهود وغيرهم بل فتح صدره لقبول كل من يقر بالشهادتين وجعلهم متساوين بالحقوق فلا يفضل المسلم أخاه المسلم الا بالتقوى وعلى هذا المبدأ العمراني المجيد ازيلت الحدود بين الممالك الاسلامية وزالت الاحقاد من صدور الامم الداخلة في الاسلام وهو ماتفرد به هذا الدين الحنيف وضمن ازالة كل تعصب جنسي من أمة «لا اله الا الله»

فحبذا لو تعصب المسلمون تعصباً حقيقياً كتعصب الاوربيين فاقتصروا على حصر منافعهم ببعضهم بعضاً في معاملاتهم حينئذ يتم لهم مايشتهون من الغنى والأثراء والعمران والارتقاء واذ فعلوا ذلك يفعلونه اقتداء بالاوربيين الذين يرون القذى في عيون المسلمين وينسون الخشبة التى في أعينهم كما يقول انجيلهم



الفصل الخامس والثلاثون

التساهل الاسلامي

سبق وذكرنا شيئاً عن التساهل الاسلامي وكيف كان الخلفاء يدنون علماء النصارى منهم ويعلون مراتبهم كما أشرنا فيما مرّ من مباحثنا الى ما لقيه المسيحيون من التساهل الاسلامي من عهد النبي صلى الله عليه وسلم الى عهد الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين الى عهد الامويين فالعباسيين فالامويين في الاندلس فالعثمانيين الا أن ذلك كله كان في ذمة التاريخ خير شاهد عدل ونأتي الآن على مثال محسوس من التساهل الاسلامي مع الغير المسلمين في بلاد الخلافة العثمانية في العهد الاخير فنقول :

ان ساكن الجنان السلطان عبد المجيد خان رحمه الله كان قد وضع أساس الاصلاح في المملكة العثمانية وأصدر خطاً همايونياً بهذا الاصلاح القاضي بمساواة الغير مسلمين بالمسلمين مساواة حقيقية فلم يقم علماء الاسلام منادين بمخالفة ذلك للدين الحنيف بل أقروا عليه وافتوا بموافقته للدين

وعلى اثر صدور هذا الخط تشكلت المحاكم النظامية في الممالك العثمانية على ان تكون مجالس الادارة ذات أعضاء منتخبة فهي في الولايات تتألف من الوالي والقاضي والدفتردار «مدير مالية الولاية» والمكتوبجي «سكرتير الولاية» والمفتي وأحد الرؤساء الروحيين غير المسلمين وثلاث أعضاء من المسلمين ومثلهم من غير المسلمين وفي المحاكم الاستئنافية ان يكون الرئيس تركيا تعينه نظارة العدلية وان يكون الاعضاء أربعا ينتخبهم الاهلون نصفهم من المسلمين ونصفهم من غير المسلمين والمحاكم الابتدائية يكون الرئيس تركيا تعينه النظارة

وان يكون الاعضاء اثنين أحدهما مسلم والثاني غير مسلم ينتخبهما الاهلون وكذلك كان الحال في الولاية والقضوات وقد تم ذلك فعلا ولم يقل المسلمون اننا لا نرضى ان يحكمنا النصارى فهل من تساهل بعد ذلك ؟؟

ثم أعلن القانون الاساسي في اول حكم جلالة السلطان عبد الحميد وهو كما رأى الجمهور يقضي بالمساواة الحقيقية فلم يقل المسلمون ان ذلك مناف لديننا الحنيف واننا لا نرضى به بل بالعكس افتى به شيخ الاسلام وقتئذ خير الله افندي وتبعه بذلك العلماء

ثم الغي القانون الاساسي واستبد بالامر جلالة السلطان عبد الحميد واتخذ له اعوانا كثيرين من النصارى منهم وصلوا للوزارة وهي أرقى مراتب الدولة ومع ذلك لم يقل المسلمون ان ذلك مناف لديننا الحنيف فهل من تساهل أكثر من هذا ؟؟

ثم قام الاحرار بالامس ونادوا بالدستور وأعلنوا المساواة الحقيقية بين الرعايا فرأينا شيخ الاسلام جمال الدين افندي بمقدمة الذين افتوا به والمشيرين على السلطان بقبوله وسمعنا عن سماحته في الجرائد الاوربية ما سمعنا من آيات التساهل الاسلامي مما ادهش العالم الاوربي بأجمعه وقالت اكثر الصحف الاوربية «ان جمال الدين افندي شيخ الاسلام لهذا العهد قد أرانا من تساهل الاسلام وتسامحه غير ما كنا نعتقد في المسلمين» ورأينا بعد ذلك شيوخ المسلمين وعلماءهم يصافحون قسس النصارى ويقبلونهم وينادون بين الناس بان للنصراني ما للمسلم من الحقوق وعليه ما على المسلم من الواجبات وما قالوا ذلك اعتباطاً ولا القوا الكلام على عواهنه ولا ارادوا به التغرير والخديعة معاذ الله بل قالوا نفس ما جاء بالقرآن الحكيم واوصى به النبي الامين وسار عليه الخلفاء الراشدون

مع كل ملوك وخلفاء المسلمين

فهذا هو التساهل الاسلامي الحقيقي الذي تفرد فيه الدين الحنيف عن سائر الاديان الالهية والموضوعة وهو كما يرى القاري الكريم يؤيد المدنية ويدعم الحضارة فلتخرس الشفاه الطاعنة على الاسلام وليتق الله اعداؤه ان كانوا لله عابدين وبالحقيقة مقرين والسلام على من تبع الهدى ولم يزغ عن محجة الصواب

الفصل السادس والثلاثون

﴿ كلمتنا للمسلمين ﴾

اذا كان كل ماسبق وكتبناه هو لاحقاق حقيقة كادت تضيع معالمها بين سفاسف الطاعنين على الاسلام والحاكين عليه جهلا واعتباطاً وافتئاتاً بانه دين وحشي همجي لايقبل المدنيـة أفلا يليق بنا ان نبحث قليلا في امراض المسلمين ونصف طريق علاجها حتى لا نكون حجة على الاسلام؟ هذا مانسأل عنه النفس ونقول لابدّ لنا من ذلك طالما رغبتنا منصرفة الى خير هذه الامة التي نحن فرد من افرادها وسنتوخى في بحثنا هذا حرية الضمير والصدق في القول والجراءة في البيان ونيتنا طاهرة امام لله منصرفة الى مصلحة هـذه الامة تتمنى لو تمكنت من استرجاع مجدها الضائع وسلطانها الدائل وليس ذلك على الله بعزيز

اننا اذا كنا نفخر بهذا لدين وانه الدين القيم الحنيف الملائم لكل عصر ومصر وانه يطابق العلم ويقبله وانه ممهد الحضارة والمدنية وانه دين الفطرة فلا يكلف الناس مالا طاقة لهم به ألا يجب علينا ان نستفيد من حقائق هذا الدين؟؟

اننا نقف في وجه اوروبا اليوم مدافعين عن ديننا ذابين عنه مطاعن

الطاعنين مبرهنين لهم ان دينهم من طبيعته الجمود وديننا من طبيعته الحركة وان دينهم يقضي بمحاربة مخالفيه وديننا يقضي بمسالمتهم وان دينهم كان حجر عثرة للعلم والمدنيـة وان ديننا كان عونا لهما كل ذلك نستطيع ان نقوله ونبرهن عليه كما رأى القارىء اللبيب فى ثنايا هذا الكتاب ولكن هذا لا يكفينا لاننا نخاف ان يحجنا اخصامنا بقولهم اذا سلمنا بكل ما تقولونه وتبرهنون عليـه وانكم لامانع لكم من دينكم ان تدخلوا ميادين الحضارة والعلم الواسعة وتعودوا عنهـا فائزين حاملين ألوية النصر والفخار فلماذا لا تعملون حسب دينكم ألا تعلمون ؟ ؟

ان الفتى من يقول ها أناذا ليس الفتى من يقول كان أبي

ألا تذكرون قول القائل ؟

يفاخرون باجداد لهم سلفوا نعم الجدود ولكن بئسما الخلف

أم لا تذكرون قول الآخر؟

ولم أرَ في عيوب الناس عيباً كنقص القـادرين على التمام

اني والله لا تخيل كل قاريء لكتابي من غير المسلمين يوجه لي في سره مقالا كهذا او ماهو بمعناه فاذوب خجلا من نفسي وأرسل رائد طرفي في نادي ثلاثمـائة مليونا منهم يوحدون الله ويقرون برسالته عليه الصلاة والسلام ويقرأون كل يوم فى كتاب الله عزّ وجل قوله « ان المؤمنين اخوة » وهم مع ذلك متقاطعون متدابرون ويقرأون قوله تعالى « وتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » ومع ذلك قد زالت من بينهم فضيلة التعاون فاقول لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وأذكر قوله تعالى « وتلك الايام نداولها بين الناس » وقوله جلّ شأنه وهو أصدق قائل «لا يغير الله ما بقوم

حتى يغير واما بانفسهم »

ولاأ كذب قومي القول ان الاوربيين لا يطعنون على ديننا لوقوفهم على حقائقه كلا بل هم يجهلونه تماماً وانما بنوا حكمهم الطائش على النظريات التي يشاهدونها في بلاد المسلمين فعلينا ان نسفه أحكامهم علينا عملياً كما سفهناها جدلياً لان مجرّد الدفاع عن الدين واظهار بواهر أحكامه لا يغنينا فتيلا عن الانتفاع بتعاليمه والعمل بما يعود بالفائدة على أهله او لسنا اهل الدين الذي أحلّ لنا الطيبات وعلمنا ان الدنيا بما فيها خلقت لنا على ان لا نسرف والله لا يحب المسرفين . او لسنا اتباع النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وقد امرنا بقوله « اعمل لاخراك كأنك مائت غداً واعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً » ؟ اولم يأمرنا هذا النبي الهادي صلى الله عليه وسلم بقوله « اطلب العلم ولو بالصين» ؟ ألم يشعل فينا هذا الكتاب المنزل الحكيم نيران النشاط للعمل فقال الله سبحانه « لكل امرء ما سعى وسعيه سوف يرى الآية » ؟ ومالي وللاكثار من هذه الآيات والاحاديث وانا اكتب لاخواني المسلمين وكلهم مستظهرون القرآن الشريف متأدبون بأدبه واكتفي ان سرّ نجاح المسلمين ورقيهم كائن في رجوعهم الى آداب كتابهم وانهم عندما كانوا في صدر الاسلام سائرين على سنن دينهم القويم سادوا العالم بغير جدال وعند ما انحرفوا عن هذه السنن وتشتتت مذاهبهم فقدت مدنيتهم وضاع سلطانهم فاذا ارادوا تجديد مجدهم واستئناف حضارتهم عليهم بالرجوع الى كتابهم والتأدب بأدبه وهنا اورد لهم في الفصول الآتية ما احسبه مضرا بهم مضيعاً لمجدهم مخرباً لحضارتهم والله الهادي

الفصل السابع والثلاثون

في الاجتهاد

من المعلوم ان الكتاب العزيز منه مايتعلق بالدين ومنه مايتعلق بالدنيا وقد انزله الله سبحانه معجزة الهية يشهد لنفسه بنفسه بصحة صدوره عن اصله الالهي لملائمة أحكامه لكلّ زمان ومكان

ومن معجزات كتابنا المبارك ان كلّ مافيه وجد بحكمة الهية سامية يراد منها خير تابعيه ورقيهم وتقدمهم فقد جاء بالتوحيد الكلي تخليصاً للناس من الاشراك الذي ابتلوا به كما خلصهم اسر العبادات المختلفة المرهقة أصحابها ولا عجب في ذلك فان الله سبحانه يريد للناس اليسر ولا يريد لهم العسر

وامرهم بالصلاة ليذكروا بها خالقهم ويسبحوه على نعمه عليهم ويشكرونه عليها وجعلها على شكل رياضي يكسب الجسم قوة ونشاطا

وامرهم بالغسل والطهارة حضاً لهم على النظافة التي بها اكتساب الصحة والعافية وتنشطاً لاجسامهم بالاستحمام

وامرهم بالذكاة ليساعد غنيهم الفقير ويعلمهم الاشتراكية الحقيقية

وامرهم بالحج ليجتمعوا زرافات في الاراضي المقدسة فيستغفرون الههم فيتآلفوا باخوّة حقيقية يرون بها الامير مساويا للصعلوك الحقير والعربي مساوياً بها للاعجمى

ونهاهم عن الشرّ وامرهم بالبر ولم يرد سبحانه بذلك غير مصلحتهم وخيرهم

وبعد ذلك جاءهم بأحكام كافية لفصل الخصومات التي تحدث بينهم ولقصاص الذين يجرمون الى غيرهم ويعتدون على سواهم ليعمّ بينهم الامان

ويسود الوفاق والسلام

ومن البديهي ان ليس في الامكان ان يجيء الكتاب الكريم بتنويع الاحكام على تنوع القضايا بل كان لابدّ من مجتهدين متفقهين يوفقون بين أوامر الله سبحانه و بين مايحدث بينهم وكان أسلافنا العلماء يرجعون بهذه الاحكام الى مايقاربها مما قضى به النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في عهده وما قضى به بعده الخلفاء الراشدون والى الاحاديث النبوية وهذا ما يسمى بالاجتهاد .

ثمّ اجتهد أسلافنا العلماء رضوان الله عليهم أجمعين فيما يتعلق بالاعتقادات والعبادات والعادات المعروفة في الوضوء والصلاة ومناسك الحج فقال كل منهم ماانتهى اليه حفظه والوقوف عليه وبعضهم تساهلوا وبعضهم تصعبوا

ثمّ اجتهد هؤلاء الاسلاف في مسائل الزواج والمواريث فقالوا ماقالوا واختلفوا مااختلفوا كلّ ذلك كان حتى القرن الثالث الاسلامي ثمّ جمد المسلمون وأصبحوا مقلدين لهؤلاء العلماء وهذا سرّ كبير من أسرار تأخرهم

ان المسلمين يرون بين هؤلاء الائمة المجتهدين اختلافات ظاهرة في أقوالهم وأحكامهم ومع ذلك لا يستطيعون ان يسفهوا بعضهم دون البعض بل هم أنفسهم نرى الواحد منهم يقول اني أقول كذا وهذا ما وصل اليه اجتهادي مع اقراري بالعجز وفي ذلك الدليل الاوفى على ان المسلمين كانوا في العصور الثلاثة الاسلامية الاولى غير مقيدين بفروع الاحكام الشرعية بل مطلقين في الاجتهاد فيفتون على مايلائم البيئة « الوسط » التي هم فيها ناظرين الى الزمان والمكان وغير منحرفين عن جوهر الدين وأساسه

ان جمود المسلمين ورجوعهم في شؤونهم الادبية والقضائية الى فتاو

وحدثت منذ ألف سنة هو الذي يحول بينهم و بين المدنية والارتقاء لان لكل زمان مقال ولكل دولة رجال

انا لا ننكر فضل أبي حنيفة وابن مالك والشافعي وابن حنبل رضوان الله عليهم أجمعين ولا نبخس هؤلاء الابطال العلماء حقهم ولا ننقص اجتهادهم من واجب الثناء وكبير التقدير ولكنا نقول ان ماوضعوه من القواعد واستنبطوه من الاحكام كان بمزيد الحكمة والملاءمة للعهد الذي وجدوا فيه وانما نستطيع ان نقول ان بعض هاتيك القواعد قد ينطبق على المدنية الحاضرة وبعضه لا يلائمها لان الناس كل يوم في شأن من دنياهم

ونحن لا نعتقد في هؤلاء الائمة الاعلام رضوان الله عليهم أجمعين سوى انهم علماء مجتهدون صالحون ولذلك لاضرر علينا اذا نحن توسعنا فيما ضيقوه وضيقنا ماوسعوه على مايلائم الحضارة الحاضرة ولا يخالف الكتاب الشريف المنزل لان الله أراد بنا اليسر وماأراد بنا العسر

لو كان منا من يعتقد في هؤلاء النبوة فالعصمة لكان من الخطأ البين ان نحود عما سطروه لنا قيد أصبع ولكن بحمد الله ليس فينا من يعتقد هذا الاعتقاد بل ان هؤلاء الائمة أنفسهم مقرون بعجزهم معلنون ضعفهم فلماذا لا نريد ان نصدق مايقولون ونعطي لعلمائنا الاعلام الحاضرين حق الاجتهاد كما أعطيناه لعلمائنا السابقين ؟

ان هذه المسألة لاتزال موضع بحث الباحثين من العلماء العاملين ولا نجهل معارضة المعارضين فيها ونحن لانحب ان نتعرض للدين اولرجاله ولكن الذي نريده هو ان يسمح لنا ساداتنا العلماء ببعض الاجتهاد للتوثيق بين كتابنا العزيز الذي نعتقد انه ملائم لكل عصر ومصر و بين مدنيتنا الحاضرة مع

مراعاة الظروف التي جعلتنا ملتصقتين بالاوربيين التصاقاً لا انفكاك بعده فاذا سار بنا علماؤنا في هذا الطريق السوي جددنا مجدنا القديم ذلك المجد الذي لايزال يرن صداه في الخافقين

الفصل الثامن والثلاثون

في الوحدة الاسلامية

من الاسباب الاساسية المضعفة من شأن المسلمين والمضيعة لحقوقهم هو انفراط وحدتهم وفقدان التضامن من بينهم وهذا لايتناول أجناسهم المختلفة فقط بل يتعدى ذلك الى أبناء الجنس الواحد

ومن مسببات هذا الانقسام تعدد المذاهب وتعدد العشائر وتعدد الاجناس وهو مانبحث فيه اجمالا تنبيهاً للمسلمين فنقول

ان تعدد المذاهب في الاسلام لايقارن بتعدد المذاهب في الاديان الاخرى كالنصرانية مثلا فان النصارى تفرقوا الى مذاهب وفرق باختلاف جوهري في جوهر الدين ففرقة منهم وهي الاريوسية تعتقد بان سيدنا عيسى انسان مخلوق وغيرها تعتقد بانه اله وابن الله

وفرقة القبطية واليعقوبية تعتقدان بان سيدنا عيسى اله وانسان ولكن اللاهوت اختلط بالناسوت اختلاطا مزجياً فاصبحا واحداً وغيرهما تقول ان سيدنا عيسى اله تام وانسان تام فهو ذو طبيعتين الهية وانسانية وليس طبيعة واحدة

وفرقة الارثوذكسية تعتقد بان الروح القدس هو الله ولكن مصدره الاب وهو الجزء الاول من أجزاء الاله الثلاثة التي هي في الوقت نفسه

ترجع الى الوحدة فتخالفها الفرقة الكاثوليكية بقولها ان الروح القدس هو الله ولكن مصدره الاب والابن الذي هو سيدنا عيسى

والفرقة البروتستانية فيما يتعلق بالتثليث تتفق مع الكنيسة الكاثوليكية ولكنها تخالف الكنائس بأسرها في قداسة الكهنة والتقديس وعبادة الصور والتماثيل الخ

وهكذا تجد الفرق النصرانية مختلفة بعضها عن بعض بأسباب جوهرية اعتقادية مما لا وجود له عند المسلمين

ان المسلمين على الاطلاق أهل دين واحد يعتقدون بان الله واحد أحد وان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله وقد أرسله بشيراً ونذيراً للعالمين وما اختلفوا الا على فهم بعض أصول العبادات وبعض أصول الاحكام التي وجدت لحل الخصومات وبعض الحوادث التاريخية

يقول السنيون ان خلافة أبي بكر وعمر وعثمان عليهم رضوان الله صحيحة ويقول الشيعيون كلا بل ان الخلافة أوصى بها نبينا الى الامام علي كرم الله وجهه وهذا الاختلاف كما هو واضح وظاهر اختلاف تاريخي لا مساس له في جوهر الدين على الاطلاق فسواء صحت خلافة الراشدين أو لم تصح أو صحت خلافة الامام علي أو لم تصح فالاسلام اسلام والتوحيد توحيد والنبوة نبوة والقرآن قرآن فما الداعي لما نراه من هذه الاحقاد المنبثة في صدور اهل السنة واهل الشيعة ؟؟

ابلغني ثقة زار الهند والعراق ان الشيعيين يلبسون الحداد في يوم عاشوراء ويبكون ويندبون سيدنا الحسين ويجددون في عملهم هذا العداوة السياسية التي كانت بين الامام علي ومعاوية وبين سيدنا الحسين ويزيد على الخلافة

فتأثرت والذي ازاد تأثري بالاكثر مارواه لي محدثي من ان اهل السنة نكاية
بالشيعة يلبسون المساخر هزءا بالمتشيين ويجعلون تلك الايام ايام لهو وسرور
وما علموا انهم بعملهم هذا يسيئون الى ابن بنت المصطفي عليه الصلاة
والسلام في قبره مع ان اهل السنة و بقية المسلمين مع العالم بأسره يستعظمون
فعلة يزيد ويعدونها اعظم فاجعة حدثت في التاريخ عموماً من عهد سيدنا آدم
عليه السلام حتى الآن والذي يحزن بالاكثر تهجم جهلاء الشيعيين بالسب
والقزف بسيدنا أبي بكر وسيدنا عمر وسيدنا عثمان ومقابلة جهلاء السنين لهم
بالقزف والسب بسيدنا الحسين واهل البيت الذين نصلي عليهم ونجلهم اجلالنا
لسيد الاكوان عليه الصلاة والسلام فتأمل ايها القارىء الكريم الى اين افضى بنا
الجهل وارث معي لحالة المسلمين

وما يقال عن اختلاف الشيعة والسنة يقال عن الوهابية والزيدية وغيرهم
وما هم الا مسلمون وافجع ماسمعه من افواه المسلمين رمي الوهابية بالكفر
مع انهم مثلنا يوحدون الله ويقروز بنبوة نبيه عليه الصلاة والسلام وكتابهم
هو القرآن الشريف بغير زيادة ولا نقصان ولا يخالفونا سوى بعدم سماحهم
بزيارة قبور الاولياء و يعدونها بدعة في الاسلام وماقصدهم بذلك الا الاغراق
بالتوحيد وهو قصد شريف ومقدس ولا اظن في المسلمين عالما عاقلا يتقي
الله ويحكم على مسلم بالكفر لانه لا يزور قبر وليّ ولكن قدر ان يسود فينا الجهل
لنقسم على أنفسنا وتضعف كلمتنا ويسود الاجانب من غير ديننا علينا كما
هو الحال في اكثر ممالك المسلمين لهذا العهد

واني أنادي من اعماق فؤادي علماء المسلمين ومجتهديهم وشيوخهم
اناديهم باسم الله الاعظم ناديهم باسم المصطفى صلى الله عليه وسلم اناديهم

باسم القرآن والاسلام ان ينهضوا للتوفيق بين المسلمين واذا كان ليس في الامكان التوحيد بينهم على مطلب واحد لاختلاف المدارك والعقول فلا أقل ان يوجدوا بين قلوبهم ويوآلفوا بين شتاتهم ويعلموهم انهم كلهم اخوة ماداموا مؤمنين بالله ورسوله واليوم الآخر وان المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً

أما اختلاف العشائر في أهل الجنس الواحد فهو يكثر في البدو كاختلاف العشائر العربية والاحقاد التي بينها وكاختلاف العشائر الكردية والعشائر الجركسية والتركية والفارسية الى آخره

واختلاف هذه العشائر قديم عهده يرجع الى ماقبل الاسلام اما لاسلام فقد أزاله فعلا حيث جاء في القرآن الشريف أكثر من مرة قوله عالى « انما المؤمنون اخوة » وفعلا عند ماانتشرت أنوار الهدى في جزيرة العرب اتحدت العشائر العربية اتحاداً صحيحاً وبفضل هذا الاتحاد مع الروح الطيبة التي بثها الاسلام في النفوس اندفعوا للفتح فدوخوا الممالك وشيدوا المدن وأنشأوا عمراناً وتمدناً حقيقيين في العالم بأسره كان مصدر عمران وتمدن أوروبا الحالي

على ان هذه الوحدة مالبثت ان زالت بفساد النفوس ورجوعها الى مطامعها الطبيعية فعادت الى التنافس والخصام وعادت اليها الاحقاد

وسبب اختلاف العشائر البدوية ووجود الاحقاد في صدور افرادها بعضهم لبعض عائد الى طبيعة وجودهم فانهم لما كانوا يعيشون من طلب لورد والكلأ في الفيافي القفراء كان لابد لهم من التزاحم والقتال لان القبيلة بينما تكون في أرض مخصبة فاذا هي تمحل ويجف ماؤها فتضطر الى قصد سواها

فتجدفيها غيرها فتتصادم العشيرتان طلبا للعيش مع مواشيهما وهكذامع الايام قويت الاحقادفي الصدور وصار بعضها عدواً لبعض

ولازالة هذه الضغائن والاحقاد من الصدور يجب تحضير هذه القبائل وايجادمعيشة لها غير معيشتها الحالية البدوية وهذا ماتستلفت اليه انظار الحكام المسلمين ولا سيما الدولة العلية التي في ملكها من العشائر العربية والكردية من لو تحضروا أزهرت الدولة بعمرانهم واشتدّ ساعدها بهم . ومثل ذلك الدولة العلية الايرانية فان عندها أيضاً العدد العديد من العشائر الفارسية والعربية وهي ذات عدد كبير وقوة عظمى وهكذاقول عن الافغانيين وغيرهم

ومن الاختلاف بين أهل الجنس الواحد من المسلمين الاختلاف السياسي فانك ترى المسلم المصري يحسب المسلم السوري غريباً عنه والمسلم التونسي يحسبهماغريبين عنه وكذلك قل عن الهندي والافغاني وهذا الاختلاف مرجعه الى السياسة وهو قديم قد ابتدأ في الاسلام منذ اغتصب معاوية الخلافة من الامام علي رضي الله عنه ثمّ عظم من يوم ان استماد العباسيون الخلافة من الامويين حيث قام الاندلسيون فقاطعوا الخلافة الاسلامية وانفصلوا عنها وبعد ذلك أخذت كلمة المسلمين ان تتفرق بضعف الخلافة فبات حاكم كلّ مدينة اسلامية في الشرق مالكا مستقلا فصرت ترى حاكم مصر ملكا وحاكم الشام ملكا وحاكم حلب ملكا وحاكم حماه ملكا وهلمّ جراً

ومن طبيعة هذا الافتراق في السياسة شنّ الحروب فصاروا يحاربون بعضهم بعضاً ونجم عن ذلك الاحقاد والاضغان التي ورثها أنسالهم حتى الآن وهي اليوم أضعف مما كانت عليه منذ ٥٠ عام مثلاً وستزول ولا شك عند مايعمّ العلم في بلاد المسلمين وينتبه المسلمون الى حرج موقفهم امام أوروبا

وضعفهم بازاء قوة الاوروبين واذا علم المسلمون هذه الحقيقة الراهنة مدوا أيديهم لبعضهم متصافحين لان الاتحاد من طبيعة الضعيف على ماقرر الفيلسوف ابن خلدون

اما الاختلاف الكائن بين أجناس المسلمين فهو ناجم عن السياسة والمذهب أيضاً فاذا اتحدت وجهتهم السياسية المذهبية عادوا الى أصل دينهم القاضي عليهم بان يكونوا أخواناً متضامنين وهذا كائن لابد منه متى عمّ العلم وأزيل الجهل من النفوس ولا بدّ من ذلك ان لم يكن عاجلاً ففي المستقبل القريب ان شاء الله

الفصل التاسع والثلاثون

في التعليم الالزامي

ان البحث بمنافع العلم ومضار الجهل من قبيل تحصيل الحاصل لانه من البديهيات التي لايختلف بحقيقتها اثنان وهل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون

ومن البراهين الداحضة حجج الطاعنين على الاسلام هو مناداته بالعلم ومحاربته الجهل والجهلاء بأفصح بيان في كتاب الله العزيز وفي الاحاديث النبوية وفي انصباب خلفاء وملوك المسلمين على نشر العلم وتعضيد العلماء في كل صقع ومصر وفي انعكاف سواد المسلمين على العلوم بانواعها من غير معارض ولا ممانع وكل هذا ظاهر ومعروف فلا نتعب كثيراً في بيانه

على أنّ المسلمين في صدر الاسلام بذلوا مجهودهم أولا في تقرير سلطانهم وتدعيم ملكهم حتى اذا تمّ لهم الامر على مايشتهون مالوا الى العلم فازهر في

وبرعوا ونبغوا في كل العلوم التي كانت وقتئذ من فقه وطب وهيئة ورياضيات وفلسفة ومسح الارض الخ ثم قدر عليهم ان تدول دولهم بانقسامهم على أنفسهم فرقاً وشيع وممالك وامارات فضعف شأنهم وتضعضع سلطانهم فلم يثبتوا امام مهاجميهم من الافرنج والتتر وبفضل هذه الحروب فقدوا العلم والمال والجاه واعتراهم هذا الجمود المدهش فاصبحوا امة لدين بعد ان كانوا مجتهدين ومشترعين .

جمد المسلمون كل هذه المدة بينما كان الاوربيون قد تيقظوا من سباتهم العميق وهبوا الى طلب العلم بفضل احتكاكهم بالمسلمين وأخذوا عنهم العلوم الاسلامية وجعلوها أساساً لتعلمهم ورقيهم وما مضى على ذلك ردح من الزمن حتى أزهرت عندهم المدارس وساعدتهم ثوراتهم ضد ملوكهم وقسسهم المستبدين فارتقوا بالعلم وتوسعوا بالاختراعات وما هو الا قرن وبعض القرن حتى انبثقت من عندهم أنوار كانت مخبوءة بين سطور قرآننا الشريف وأفكار أسلافنا العلماء الاعلام [1] ولو لم يقدر الله لنا من الضعف ما كان في علم الغيب لكنا نحن أهل هذا التمدن الزاهر المنبثقة أنواره من سماء الغرب المبهرة عيون الشرقيين ولكن قدر فكان

ثم قدر علينا ان نجمد هذا الجمود أعواما متواليات ثم نرى الغرب وقد سطعت منه أنوار العلوم فنرفض تلقيها عن اهله لا لسبب ديني وقد قال

(1) لقد اتضح لدى العلماء والباحثين ان أكثر ما نسمع ونرى من هذه الاختراعات العصرية قد أشار اليه القرآن الشريف ومن هذه الاختراعات ما وجدت مبادئه في مدونات علماء الاسلام الاعلام وبعضه ما وجدت آثاره منذ ألوف من الاعوام وقد قال سيدنا سليمان عليه السلام « لا جديد على الارض »

رسول الله في حديث مثبوت «اطلبوا العلم ولو بالصين» أي ولو من الكافرين ولكن لكراهتنا الغربيين

وقد كرهنا الغربيين لا لانهم يخالفوننا في الدين ولا لانهم مسيحيون كما يتشدق المتشدقون ولكن لاننا رأيناهم متحاملين علينا متعصبين ضدنا طامعين باملاكنا وبلادنا وما نحن بعالم الملائكة الهيوليين لنحب من أرادبنا الشرّ ونوى لنا الضر ومن البديهي

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   كما ان عين السخط تبدي المساويا

فصرنا نرى في هؤلاء الغربيين كل حسناتهم سيئآت بل ما كنا نرى عندهم شيئاً من الحسنات لانهم أعداء ديننا الحنيف وأعداء وطننا ولانهم هاجمونا محاربين وهاجمونا مسالمين وساكنونا وهم لنا محتقرون

والذي أزادبنا نفوراً عن العلم جمود علمائنا الذين كانوا وما زالوا يرون كل مالا عهد لاسلافنا به من مخترعات الغرب وعلومهم بدعة في الاسلام فكانوا يعدون من يتعلم لغة اجنبية مبتدع ومن يلبس ثوباً على الزي الافرنجي مبتدع ومن يترك العمامة ويلبس القلنسوة مبتدع الى آخر ما هنا لك من مثبطات عزائم النابغين منا والمجتهدين حتى توصلوا الى معارضة المصلحين من ملوكنا وحكامنا بدعوى انهم يقلدون الغرب على ما هو ثابت في التاريخ

وجمودنا هذا في تقليد أسلافنا مع علمنا بالبون الواسع بين بيئتنا والبيئة التي عاشوا فيها هو الذي حمل الاوربيين ان يحكموا علينا حكمهم المصدع فقالوا « لامدنية في الاسلام ولا مدنية مع القرآن »

ثم ان الملوك أصحاب العزائم استطاعوا ان يتغلبوا على العلماء فادخلوا الاصلاح الى ممالكهم كالدولة العلية العثمانية التي بعد اللتيا والتي أدخلت النظام

في عسكريتها وارتدت الملابس الافرنجية وفتحت المدارس للعلوم العصرية ولكن بعضها حتى الآن لم يستطع الوصول الى مثل هذا الاصلاح بل مازال التقليد غالا ايديها عن كل اقتباس مفيد من علم وعمل قد رالغربيين ان يسبقوا المسلمين اليه ولا ماس له بديننا الحنيف الذي هو دين اليسر وليس دين العسر وما جاء به نبينا صلى الله عليه وسلم الا رحمة للعالمين

وما عسى ان أقول عن تمسك المقلدين بالقديم الذي ورثوه ونحن نرى في مصر مع رقيها المحسوس ومع احتكاكها بالاجانب لاتزال محاكمها الشرعية موضع الخلل الذي ضج منه المسلمون ومع ذلك نرى باعيننا ونسمع بآذاننا صياح المقلدين ضد المصلحين بدعوى ان هكذا وجد الشرع الشريف من قديم السنين وان ادخال الاصلاح على محاكمه بدعة من المبتدعين

بل هوذا عندنا الازهر وهو أعظم وأكبر مدرسة في الاسلام وأصول التعليم فيه مختلة معتلة ومع ذلك يأبى المقلدون ان يدخلوا عليه الاصلاح اللائق به وينظمون دروسه ليحولوه الى كلية دينية عليا ككليات اوروبا الدينية بحجة ان هكذا أوجده الاقدمون

نعم ان محاكمنا الشرعية هكذا وجدت من صدر الاسلام ولكن كان لا يتقدم للقضاء ألا الصالحون المتقون وأمام اعينهم قوله تعالى « اذا حكمتم بين الناس احكموا بالعدل » وكان عند المسلمين تقوى حقيقية بحيث لايحتال منهم محتال على ضياع حقوق اخصامه بما يساعده من بساطة المحاكم ولا سيما في القضايا الزوجية اوقضايا المواريث خلافاً لحالتنا الحاضرة وما نحن فيه من خراب الذمم بحيث أصبحنا في حاجة الى اصلاح قضائنا ليضع حداً لهؤلاء الماطلين مضيعي الحقوق

الآن ولكن كان الناس في ذلك العهد غير اليوم كان الناس يقبلون على العلم من عند أنفسهم حباً بالعلم ويجتهدون في تحصيله متكبدين كل المصاعب والمتاعب فكان يكفيهم ان يروا أستاذاً فيسألوه او يحضروا عليه درساً او بعض دروس وكان نظامه وتنذو العلوم التي تدرس فيه كل ماكان عند الاقدمين

اما الآن فالرغبة في العلم لذاته ممدومة بيننا واكثر من نراه من هؤلاء المتعكفين على الدرس في الازهر هم طلاب عيش اوهاربون من الجندية او راغبون في منصب يشتغلون فيه من مناصب الدين كالخطابة والمأذونية والافتاء والقضاء فاصبحنا والحالة هذه في حاجة الى قانون جديد كقوانين المدارس الكبرى تصان فيه أموال الازهر من الضياع بضمانة استفادة المتعلمين مما يدرسون

وفوق ذلك فكان أسلافنا يكتفون بالعلوم المعروفة لديهم كالتجويد والصرف والنحو والمعاني والبيان والحساب واللغة والمنطق الخ اما الآن فقد تحوّل الزمان بتحول أهله وأصبح القاضي محتاجاً الى لغة من لغات الاوربيين يقتبس عنها ماقاله شراعهم في شرائعهم الموضوعة توصلا الى احكام الاحكام التي يصدرها وهو متربع على أريكته وكذلك القول في المفتي والمأذون والخطيب الذين يحتاجون الى الطبيعات والجغرافيا والتاريخ وغير ذلك من العلوم العصرية التى تفقه العقل وتزيد في مدارك المتعلمين وتعينهم على خدمة الدين وأهل الدين

ومعلوم ان العالم في كل جيل يكون بنسبة الوسط الذي هو فيه فالعالم في القرن الثالث عشر الهجري لايجوز ان يكون كالعالم في القرن الثامن عشر الآن فلكل مقام مقال ولكل زمان دولة ورجال

الفصل الاربعون

في التعليم الالزامي

شعر الاوربيون بفائدة التعليم وان لا حياة للامم الا بالعلم فنشطوا اليه وانبرى علماؤهم للتأليف وأغنياؤهم لبذل المال في سبيل العلم

شعر الاوربيون في القرن السابع عشر المسيحي ماشعر به المسلمون من قبل عشرة أجيال فهذه اوقاف المسلمين واحباسهم على مدارس العلم وعلى معاونة العلماء والمؤلفين فيها البرهان الاشهب على شعورهم الحي في سبيل تعميم التعليم

وانعكف علماء الفرنجة على الترجمة والتأليف والتدريس فى ذلك القرن انعكاف علماء المسلمين في زمن حضارتهم على ذلك

مدت حكومات اوروبا يداً سخية للعلم أشبه بايدي خلفاء المسلمين وملوكهم السخية في عهد مجدهم وفخارهم

وهكذا كان القرن السابع عشر وما بعده قرني دراسة واستعداد للرقي في البلاد الاوروبية بينما كان المسلمون لاهين او متلاهين

وفي أواخر القرن الثامن عشر كان الخاصة من الاوربيين تشبعوا من العلم فقاموا ينادون بالزامية التعليم فاقرت على ذلك جرمانيا بادىء بدء وأدخلته على بلادها وكانت اول من عمل بالزامية التعليم في أوروبا وتبعتها في ذلك انكلتره وفرنسا والنمسا وأميركا في غضون القرن التاسع عشر المسيحي

وتحديد التعليم ألالزامي هو ان تفتح الحكومة المدارس المجانية وتجبر الاهلين على ارسال أولادهم اليها الى سن محدود العاشرة أو الثانية عشرة مثلا. فالتعليم الالزامي في هاتيك البلاد كالتطعيم في مصر فكما ان الحكومة

المصرية توجب على كل مصري أن يعلم ابنه في ظرف ثلاثة أشهر من ولادته واذا تأخر عن ذلك بغير سبب شرعي تأخذه بجريرته كذلك الحال هناك فان كل مولود بلغ الخامسة من عمره وجب على أبيه او ولي امره ان يدخله مدرسة الحكومة اواي مدرسة سواها واذا خالف سألته قانونياً واجبرته على ارسال ابنه لدور العلم سواء كان من أهل المدن او اهل القرى وسواء كان غنياً او فقيراً وبهذه الواسطة عمّ التعليم في هاتيك البلاد بحيث لا ترى فيها من لا يحسن القراءة او الكتابة الا خمسة او اربعة في الألف من المتشردين او العجزة او الذين لم تهتدِ الحكومة اليهم

ولقد جعل القانون الاساسي العثماني التعليم الزامياً والأمل ان لا يمرّ على الدولة الملية بضعة أعوام حتى نراها قائمة بهذا المشروع الحيوي الكبير أما الآن فالبلاد العثمانية مع انها أرقى البلاد الاسلامية علماً وحضارة لا يزال المتعلمون فيها لا يبلغون اكثر من عشرة في الالف وكذلك الحال في مصر وتونس مع وجود الاحتلال الاجنبي فيهما

وليس التعليم الالزامي بالامر السهل اجراؤه بل هو يحتاج من المصاريف الطائلة الـ[illegible]ـلة ما لا يستخف به ولكن فوائده تربو كثيراً على مصاريفه لانه يرقي سواد الامة لا افرادها فقط ويجعلهم اكثر استعدادا للكسب ولذلك عوّلت عليه الممالك الراقية في اوروبا

. .. .

الفصل الواحد والاربعون

﴿ المدارس الاجنبية والمسلمون ﴾

ولم تكتف الدول الاوربية بنشر العلوم والمعارف في بلادها بل تعدتها الى ما سواها فاملأت آسيا وأفريقيا بمدارس عدا ما تبذله من الهبات والمنح للمدارس الشرقية الوطنية ولم تقتصر تلك المساعدات على الدول الغنية بالعلم كفرنسا وانكلترة والمانيا وأميركا بل تعدتهن الى أشدهن همجية وجهالة كالدولة الروسية التي لا يبلغ عدد الذين يحسنون القراءة والكتابة فيها الاربعة بل الثلاثة في الالف .

والغرض من عمل هذه الدول سياسي محض تريد فيه أن تكتسب ثقة الشرقيين وأميالهم لأن من تعلم عند قوم ودرس لغتهم وآدابهم أصبح ميالا لهم بل أصبح واحداً منهم كما هو معروف ومشهور

على أن الغرض من هذه المدارس لم يقتصر على السياسة فقط بل تعداه الى الدين حيث أناطت هذه الدول مدارسها الخارجية بالمبشرين من رجال الدين

وأغرب ما نراه في أحوال هذه الدول ان الجمهورية الفرنساوية مع مناداتها بفصل الكنيسة عن الحكومة ومع جهادها المتواصل باغلاق المدارس الدينية في بلادها نراها تفرق أموالها على المبشرين في الشرق ليخدموا سياستها الخارجية فهي بعملها هذا تري مالا يوافقها في داخليتها يوافق الاجانب عنها فتأمل

على أن هذه المدارس في الشرق لم تنل استحسان المسلمين فأحجموا

عنها واقتصرت منفعتها على المسيحيين الذين ازدحموا بين جدرانها فنالوا نصيباً كافياً من العلم كما ترى نجباءهم بيننا على ان هذه المنفعة قد حصلت لبعض اولئك الشبان لا لهم جميعاً ولا للوطن الذي هم ابناؤه أما المسلمون فقلّ من أرسل ابنه لهذه المدارس لانهم خافوا على اولادهم ان يفتنوا في دينهم أولاً وفي سياستهم ثانياً وفي آدابهم ثالثاً على ما ترى :

ان مدارس المبشرين في الشرق وان كانت لا تجبر تلامذتها مباشرة على اعتناق الدين التابعة له ولكنها تجبرهم على حضور اجتماعاتهم الدينية وعلى حضور الدروس والخطب الدينية الملأى بالمطاعن والمغامز على الاسلام ومن البديهي أن الاولاد في مدارسهم سواء كانوا في العاشرة من عمرهم أو بلغوا العشرين لا يزالون أصحاب آراء فطيرة وأفكار متقلبة وفوق ذلك فالولد يعتقد العصمة بأبويه اولا طالما هو يحجرهما حتى اذا خرج من الكتاب اعتقد بعصمة استاذه فتربية ابناء المسلمين هؤلاء على آداب دين يخالف دينهم مما لا تحمد مغبته ولا شك وما في البشر من يريد أن يشب أولاده على غير الدين الذي ولد فيه

وهذا هو الشر الاول الذي تخوف منه المسلمون واعرضوا فيه عن طرق ابواب المدارس الاجنبية

هذا ما يتعلق بالدين أما ما يتعلق بالسياسة فهو أنكى وأمرّ فان الوطنية الحقيقية لا تقوى في الصدور الا اذا أرضعتها الام لابنها مع اللبن وبثها الاستاذ في روح تلميذه مع العلم والمسلمون بحمد الله حرموا الاثنين مرة واحدة فلم يبق عندهم الا الحمية الوطنية التي يتلقاها الولد عن أبيه والعشير عن عشيره فاذا كان هذا حالنا نحن معاشر المسلمين فهل يعقل ان نرسل أولادنا المدارس

الدول الطامعة بنا التي هي عدوة بثوب صديق ولو فعلنا لأصبحت ناشئتنا كالناشئة المسيحية في الشرق سواء بسواء وعلى سبيل المثال نأتي لك بحالة من هذا القبيل في الدولة العلية العثمانية

ليس من ينكر ما كانت عليه الدولة العلية العثمانية قبل اعلان الدستور من الخلل والاضطراب وفساد الاحكام والحكام بحيث ضجت السموات والارضون من تلك المظالم والمغارم

ومن الثابت المعروف ان تلك المظالم والمغارم لم تكن منصبة على رؤس المسيحيين دون سواهم بل كانت عامة شاملة للجميع من مسلمين وغير مسلمين بل كان المسلمون اكثر من غيرهم تضرراً من هاتيك المظالم

وما الدولة العثمانية بالدولة الوحيدة التي منيت بهذا الاختلال وما هي وحدها التي أرهقت بفساد أحكامها اعناق الرجال كلا بل سبقتها في ذلك كل هذه الدول التي تتلألأ بها الحرية والمساواة والعدالة في هذا العصر بل من دول الارض من لا تزال كالدولة العثمانية في عهد استبدادها بل من هي اشد شراً منها كالروسيا مثلا

فلو بحث باحث في عهد استبداد الدولة العثمانية في أعماق صدور العثمانيين لوجد المسلمين متأففين من تلك الحالة يتمنون اصلاحها ويدعون على أولئك المستبدين بالهلاك العاجل ويفكرون بقلب هذه الدولة راساً على عقب بينما كان يرى المسيحيين يتمنون ان تحتلّ الدول الاجنبية البلاد وهذا لم يكن سراً من أسرارهم بل طالما جاهروا به بمجالسهم وكتبوه باقلامهم على صفحات صحفهم وكتبهم

وانت تعلم ان الاجنبي ولو كان انكليزياً اوفرنسياً وان اتفق مع هؤلاء

المسيحيين العثمانيين في الدين لايزال يمدهم اجانب عنه في الجنس واللغة فلا يلبث اذا أحتلّ بلادهم « لاسمح الله » ان يسومهم ما يسومه عادة الغالب لمغلوبه والسائد لمسوده من الذلّ والهوان ويحرمه من أكثر منافع بلاده خلافاً لمالو أصلحت البلاد « كما تمّ والحمد لله » وأعلنت الحرية والمساواة وضرب على أيدي المستبدين والظالمين حينئذ يتمتع أبناء الوطن بحقوقهم كلها ويصبحون متساوين أمام الدستور بحيث لا يفضل أحدهم الآخر الا بصدق وطنيته وذكائه وحسن استعداده

واني لاعتقد ان لولا هذه المدارس الاجنبية التي بثت بصدور الناشئة المسيحية ما بثت لما طلبوا ان تضمحل دولتهم ويزول سلطانهم ويحكمهم الاجنبي عنهم لان الوطني الحقيقي هو الذي ينهض لاصلاح حكومته و بلاده باذلا في سبيل ذلك دمه وماله لا الذي يتمنى ان يسود عليه الاجنبي

فهذا هو الشر الثاني الذي تهيبه المسلمون وآثروا ان يشب أولادهم جهلاء من ان يفتتنوا في وطنيتهم مع العلم

بقي علينا مسألة الآداب فان هذه المدارس الاجنبية تقلت للشرق مع علومها آداب الغربيين وهي لا تتفق مع آداب المشارقة اذا صرفنا النظر عن البحث في أي الآداب هي الافضل فلا يريد الاب العاقل طبعاً ان يشبّ بنوه على غير آدابه وآداب البيئة التي هو فيها ولبيان ذلك أقول:

ان الغربيين حملوا لنا أزياءهم وحسنوها لنا فحسنت في أعيننا والازياء لادخل لها في الدين كما هو واضح ولكن لها دخل كبير في ثروة البلاد فقد كان الشرقيون مقتصرين على زيهم الشرقي فيلبسون مصنوعات بلادهم فيبقى خيرهم فيهم فلما مالوا الى الازياء الغربية راجت في أسواقهم صنائع الغرب

وبارت صنائعهم فازاد ذلك في فقرهم كما ازاد في مصاريفهم ونحن لانكر ان لو كانت الدول الشرقية ساهرة على خير رعاياها لاشتغلت في تحسين صنائع البلاد حتى تقوم بحاجة السكان ولكنها لم تفعل واهمالها لم يكن عن غفلة منها فقط بل وعن ضغط من اوروبا نفسها التى ارهقت البلاد وأهلها بالامتيازات التى كسبتها مع الزمان

وعدا ذلك فان آداب المشارقة في اجتماعاتهم تخالف آداب الاوربيين وكان المسيحيون في الشرق كالمسلمين في آدابهم لما تربت ناشئتهم على أيدي الغربيين قلدوهم في آدابهم ولا أقول في هذا الموضوع كلمة ولكني أحول نظر القارىء الكريم لدراسة أحوال نصارى الشرق المقلدين للاوربيين ليعلم مبلغ تضررهم منها ولتنبيه اخواننا المسلمين من مساوي تلك الآداب افصل بعضها في الفصل التالي

فلهذه الاسباب امتنع المسلمون عن ارسال أولادهم الى المدارس الاجنبية غيرة على دينهم ووطنيتهم وآدابهم لاعن مجرد تعصب كما يدعي أعداؤهم ونعم مافعلوا لو لم يقصروا في واجباتهم لانهم كان عليهم ان يتعاضدوا في فتح المدارس الوطنية حتى لايسبقهم في العلم مواطنوهم النصارى واللوم الاكبر على حكوماتهم التي كانت ولا تزال متوانية في أمر التعليم



الفصل الثاني والاربعون

في مضار التمدن الغربي للشرقيين

قرّر الفيلسوف ابن خلدون ان المغلوب مولع دائما بعوائد الغالب وهذا ما نراه فعلا حيثما اتجهنا في هذا الشرق التعس الذي قضي عليه ان يصبح مغلوباً من الغرب بغفلة أهلهم وانقسامهم على أنفسهم

فلما نهض الناهضون منا لاعلاء كلمة الاسلام تفرقت آراؤهم وتشتتت أفكارهم فنهم من ذهب الى ان الواجب على المسلمين ان يحذوا الطريق التي سلكها الغربيون وما زالوا سائرين عليها على حدّ قول الشاعر

وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ان التشبه بالكرام فلاح

ومنهم من ذهب الى وجوب ادخال لرقي على آداب البلاد باقتباس النافع من الآداب الاوربية وترك الضار بما لا ينافي أحكام قرآننا الشريف

ومنهم المتعصبون أنصار القديم الذين ذهبوا الى وجوب الثبات على حالتنا القديمة الى ان يقضي الله أمراً كان مفعولا ومن البديهي ان هؤلاء يريدون ان يرجعوا بالمسلمين الى ما قبل ألف عام مع ان العالم باسره في الشرق والغرب متجه الى الامام

اما نحن فنذهب الى ماذهب اليه أولئك الذين يريدون ان يدخلوا الرقي على الآداب الشرقية بما يقتبسونه من الغرب مما لا ينافي أحكام شرعنا الحنيف ولا يخالف أحوالنا الاجتماعية

اننا نعلم جيداً ان تعليم المرأة ضروري جداً لرقي الامة لان هذه المرأة التي تهز سرير ابنها بشمالها تستطيع ان تهزّ العالم بيمينها اذا هي أحسنت تربية

أبنها عقلا وصحة وهذا لا يتمّ لها الا اذا كانت على معرفة وعلم ولذلك نقول ان تعليم المرأة نافع وواجب ولكننا نقول مع ذلك ان تعليم المرأة على أسلوب الغربيين ضار بنسائنا كما سبق وأضرّ بنسائهم

ان الطبيعة أوجدت المرأة لعمل والرجل لعمل آخر أوجدت المرأة للحبل والولادة وتربية الاولاد والسهر على راحة زوجها وأوجدت الرجل للكسب والاتجار وتعمير الارض والذبّ عنها فاذا قامت المرأة بوظيفة الرجل فهل باستطاعة الرجل ان يقوم بوظيفة المرأة؟ • أباستطاعة الرجل ان يحبل ويلد ويربي أطفاله ويرتب بيته ؟ ؛ كلا والف كلا .

فاذا ثبت هذا وهو ثابت نحكم بلا تردد على خطل وخطأ تربية المرأة على الطراز الاوربي لان هؤلاء الاوربيين يربون بناتهم ليكنّ رجالا لا نساء

سر معي الى الغرب حيث سرت أنا وتجوّل حيث تجولت وشاهد ما شاهدت تجد الصبايا الحسان النواعس وهنّ في زهرة العمر في حوانيت التجار وفي مصالح الحكومة وفي المصانع والمعامل وبين الاطباء والحامين والمهندسين بدلا من ان ترى البيوت فيهنّ عامرة والمدارس ببناتهن مزهرة بل لا اسير بك الى أوربا وأنت ترى في مصر من بناتهم وبعض الشرقيات مثالا لهنّ يحزنك جداً اذا فكرت بحالهنّ ودرست حياتهن

واذا علمت ان هاته الفتية يقضين بياض أيامهنّ بالعمل وسواد ليلاتهن بالسهر قدّرت ماوراء ذلك من الفساد العام الذي تقرأ طرفاً من حوادثه في روايات كتابهم التي نقلت أكثرها الى العربية

ان الشرقي لا يزال طبيعيا أبن الفطرة خاضعاً لدين هو دين الفطرة متأدب بأدب الفطرة يغار على عرضه ويبذل نفسه دونه ويريد ان تكون

امراته ولولوداً ودوداً فهو اذن لايقبل وان يقبل ان يربي ابنته تربية غربية تذهب بعفافها وأدبها وتجعلها كاختها في الغرب تقضي شبابها باللهو واذا تزوجت تستعمل كل الوسائط لتمتنع عن الحبل والولادة تفرغاً لعملها أو لهوها لان في ذلك محاربة للطبيعة وتضييع للنسل

حدثني محدث عن الغرب قال ان الزواج في اوروبا لايكون الا في الكهولة فيتزوج الرجل بعد الثلاثين ومنهم من يبقى عازبا للاربعين فما فوق والمرأة قلما تتزوج في العشرين واكثرهن يبقين عوانس للثلاثين فما فوق وبعضهن لايتزوجن بتاتاً وبعد هذا الزواج يكتفي الزوجان ان يكون لهما ولد واحد او ولدان ثم يستعملان الوسائط الطبية لمنع الحبل حتى لايثقل على المرأة تربية اولادها وعلى الرجل كثرة الانفاق واتصلت بعض النساء هناك الى استئصال المبيض من الرحم ليمنعن الحبل تماماً فتأمل

وأعظم برهان على استحالة قبول الشرقي للآداب الغربية ولا سيما في تربية بناته ما نراه في نصارى الشرق فان اكثرهم ربوا بناتهم في مدارس المرسلات الاوربيات فتعلمن الفرنساوية أو الانكليزية مع الرقص والتوقيع على البيانو وتعلمن شيئاً من الصناعات اليدوية وتركن مدارسهن وليس فيهن من تحسن خياطة ثوبها ولكنهن لا يلبسن الا على آخر زي يرد في جراند باريس وما منهن من تحسن طبخ لون من الطعام ولكنهن لا يأكلن الا بالشوكة والسكين ولا يستطبن الا الاواني الاوربية فلا تسل عن آبائهن وما يتكبدون من مصاريفهن الا اذا كان منهم الغني الذي لا يهمه كثرة الانفاق فمثل هاته البنات أعدتهن المدارس للاستخدام لا للبيوت وهن يصلحن للكسب لا لارضاء أزواجهن وتربية بنيهن ولكن الشرقي لم يرَ حسناً ان

يرسل ابنته وهي في زهرة صباها لتختلط مع الرجال بحرّية تدوس فيها آدابها وعفافها فاضطرّ أن يبقيها في بيته على ان هذه الابنة التي انزوت في بيت أبيها لم يعد لديها ما تستأنس به الا رواية تطالعها فتقرأ فيها أسرار العاشقين والعاشقات الى ان يزورها زائر من اولئك الشبان تصباه وتصباها الى آخر ما هنالك .....

ولما رأى الشبان ان هاته البنات لا يصلحن لخدمة البيت امتنعوا عن التقدم اليهنّ الا اذا كانت احداهنّ ذات مال فيقبض زوجها ابانها « ضوطتها » ليستعين بها على عيشه ويقوم بسداد مطامعها التي لا حدّ لها ويأتي لها بالطابخ والخادم والخائطة الخ

ونجم عن ذلك تأخر شبانهم بالزواج بحيث يبقى أحدهم الخامسة والثلاثين أو الاربعين من عمره وهو عازب ينفق عن سعة على ملاهيه ولا يعنى بمستقبله فيخسر دنياه وأخراه

هذه حالة اخواننا المسيحيين في الشرق لخصناها لاخواننا المسلمين المندفعين نحو المدنية الغربية بلا حساب ليعملوا فيها رأيهم قبل ان يستسلموا لتذويقات الذين يزينون لهم كشف الحجاب واعطاء المرأة الحرية الغير مباحة في الشرع الشريف

نقول هذا ونحن نعتقد بوجوب تربية المرأة ولكن على شكل يلائم الفطرة البشرية وينطبق على أحكام الشرع الشريف كأن تنشأ عندنا مدارس البنات ليتربين فيها على آداب ديننا الحنيف فيتعلمن التجويد فالكتابة والقراءة فالاداب الاسلامية فبادي الصحة والطبيعيات فأصول ترتيب البيت وتربية الاولاد والتمريض فالطبخ فالخياطة واذا وجد عندنا مثل هذه المدرسة

أمدنا لناشئتنا مربيات عاقلات يكسبنهم صحة وعقلا

والخلاصة ان تعليم المرأة واجب ومفيد للبيئة الاسلامية وعليه معوّل كبير في تقدم المسلمين ولكن هذا التعليم يجب ان يكون كما قلنا مما يفيد المرأة ويمدها الى ما اوجدتها له امها الطبيعة لا ان يمدها الى تقليد الرجال والا فتصبح نساؤنا رجالا ونعود فنشكو مما يشكو منه الاوربيون الآن من قلة النسل وفقدان المعيشة العائلية وكثرة حوادث الزنى والفحش والاكثار من مواخير العهر مما لاعهد للاسلام به قبل مخالطتهم للاوربيين

ان المرأة في الاسلام على عهد مجده وحضارته لم تكن بالجاهلة ولكنها كانت امرأة بكل معنى الانوثة فقد نقل لنا التاريخ عن كثيرات كنّ شاعرات والشعر عند العرب كان له المقام الاول في ترقية النفس وبث الفضائل فيها كالانفة والعزة والشجاعة

وكانت الكثيرات من نساء العرب يشاركن رجالهنّ في غزواتهم فيمرضن المرضى ويطهين الطعام الى آخر ما يحتاج اليه المحاربون من الخدمة

ونقل لنا التاريخ كثيراً من اخبار المسلمات اللواتي كن يستظهرن القرآن ويعلمن بعض العلوم الضرورية لتربية ابنائهن على ان ذلك كان في الاسلام وهنّ محافظات على ادب هذا الدين وشرائعه فلم يقدمن مرة على كشف الحجاب ولا بذلن نفوسهنّ بغير حساب ولا اقدمن على اعمال الرجال لانهنّ يعلمن جيداً ان المراة التي ترضي زوجها وتربي اولادها اجرها عند ربها كاجر الرجل المجاهد في سبيل الله فهذه هي اداب الاسلام وعليها يجب ان نسير اذا اردنا لانفسنا الارتقاء المحمود في معراج الحضارة

الفصل الثالث والاربعون

﴿ في تعميم التعليم ﴾

بقي علينا البحث في الوسائل الواجب اتباعها لتعميم التعليم في الشرق فنقول :

ان تعميم التعليم في الشرق يحتاج الى الاموال الوفيرة لتشييد معالم العلم وفتحها في وجوه ناشئتنا وهذا يناط باديء ذي بدء بحكوماتنا ثم باغنيائنا وعلمائنا

أما حكوماتنا فليس كلها حرّة مطلقة اليد لنطالبها بتعميم التعليم ثم ليست اليوم بميسورة لنتقاضاها هذا الانفاق الجسيم

فالدولة العلية العثمانية وهي أعظم الدول الاسلامية جاهاً مرهقة خزائنها بالديون وشعوبها بالضرائب وهي اليوم في عهدها الاصلاحي لاتقوى على تعميم التعليم الا اذا عضدتها رعاياها به ببذل طائل الاموال عن سخاء من كل غني وكبير فهل يرينا اخواننا سراة العثمانيين مثل هذا الكرم الحاتمي في سبيل التعليم ؟ ؟

اما ما عدا الدولة العثمانية فالدول الاسلامية الاخرى في حالة من التضعضع السياسي يرثى لها والمسلمون فيها مدينون بالاكثر في تنشيط التعليم من خزائنهم ولا سيما في الممالك التي قضي عليها ان تخضع للدول الاوربية فغلت أيديها عن كل انفاق في سبيل العلم

ان لدى المسلمين اوقاف واحباس ذات ريع وافر ولا يزال هذا الريع ضائعا او ينفق في سبيل قليلة الخير للامة وما ذلك الا لمحافظة قضاتنا وعلمائنا

على نص شروط الواقفين واذا نظر هؤلاء القضاة والعلماء الى الغاية الاساسية التي رمى اليها الواقفون رحمهم الله لوجدوها مطلق فعل الخير وما حصروها بشروطهم الا لانهم حسبوها مفيدة لاخوانهم المسلمين فاذا عرفوا ذلك كان لهم ان يمنوا بصرف ذلك الريع الجسيم او اكثره في سبيل تعميم التعليم في بلاد المسلمين واذا فعلوا ذلك خدموا هذه الامة الخدمة المشكورة المبرورة

ان اسلافنا الصالحين لذين اوقفوا الاوقاف وحبسوا الاحباس في سبيل المساجد والفقراء على الاشكال التي اشترطوها ما ارادوا بها الا خير المسلمين تزلفاً لمرضاة الله رب العالمين فاضر قضاتنا ومفاتينا لو حرروا تلك الشروط وقضوا بوجوب انفاق ريع هذه الاوقاف كلها او اكثرها في سبيل تعميم التعليم؟ ولو فعلوا ذلك لما خالفوا نية اولئك الواقفين ولما اغضبوا الله ورسوله الامين

وهذه اوقاف مصر مثلا وتضرب الامثال في كثرتها ومع ذلك لا ينفق عشر او بعض عشر ريعها على المدارس فلو رأى اولياء الامر ان ينفق هذا الريع الكبير في سبيل تعميم العلم لاستفاد منه مسلمو مصر بجملتهم والى ذلك اشار اللورد كرومر عنده قامت عليه قيامة الصحف لاهماله تنشيط التعليم في وادي النيل

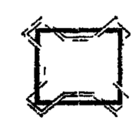
وما نقوله عن اوقاف مصر يصدق على أوقاف المصريين في كل صقع ومصر فان اسلافنا الصالحين رحمهم الله لم يغفلوا عن خير امتهم فأسعفوها بأوقافهم فلماذا لا ننتفع نحن خلفاؤهم وورثاؤهم بهذه الاوقاف ؟!

بقي علينا ان نقول كلمة لعلمائنا فان الله وفقهم للعلم لا ليكتموه في صدورهم بل ليجودوا به على غيرهم فهم اذاً مسئولون ن يتجردوا للتعليم أمام الله وأمام

وطنهم سواء باجر او بغير اجر وان العالم المعلم له اجر عند الله كاجر المجاهدين في سبيل الله

كذلك لايجب ان يند عنا وجوب تأليف الجمعيات الخيرية لنشر العلم كهذه الجمعيات الاوربية المحتكة بنا فان هذه الجمعيات تستطيع ان تجمع من هنا وهناك الاموال الكثيرة فتستعين بها على تعليم المسلمين وكلنا يعلم ان الكرم خلق لاهل هذا الدين الحنيف وان الموحدين لو رأوا جمعية قد نشأت بينهم وهي بالفعل تنفق ما تجمع في سبيل التعليم والتهذيب لاغدقوا عليها الاموال الوفيرة وعضدوها فوق ذلك بجاههم

والقصارى على كل مسلم يفكر باصلاح أمته ويريد الخير لها ان يعنى في سبيل نشر العلم وتعميمه وعلى كل حكومة اسلامية تريد ان ترقى برعاياها الى أوج السعادة والقوة والثروة ان تنشط في نشر العلوم والمعارف والآداب في بلادها وان اهمالنا في العلم هو الذي جعلنا في مؤخرة الناس بعد ان كنا بالعلم قادتهم والله ولي المصلحين



الفصل الرابع والاربعون

﴿ في التجاره والصناعة ﴾

ومما أضعف المسلمين هو تهاونهم في التجارة والصناعة واقتصارهم على الزراعة مع انهم كانوا في أبان مجدهم هم اهل التجارة والصناعة بغير جدال اذا قرأنا تواريخ العرب وغيرهم من المسلمين رأينا تجارهم قد رادوا الارض شرقها والغرب للاتجار بصنائعهم ومزروعاتهم وفوق ذلك فقد كان تجارهم مع اشتغالهم بالكسب الحلال يبشرون بكلمة لله حيثما حلوا الرحال وهذا هو السبب الاكبر لوصول كلمة التوحيد لبعيد الاقطار كالصين والهند

ولا يزال هؤلاء التجار حتى الآن يجولون الاقطار ولكنهم ضعفوا لضعف صنائعهم ولمزاحمة الاوروبيين لهم في الاحتيال باساليب الصناعة والتجارة حتى أصبحت البلاد الاسلامية مفتوحة للمصانع والمتاجر الاوربية

وضعف المصانع والمتاجر الاسلامية مسبب عن فقدان العلم من ربوعهم لان هؤلاء الاوربيين بفضل العلم توصلوا الى اختراعات سهلت عليهم اتقان المصنوعات وتحضيرها بأثمان رخيصة لا يستطيع الشرقي ان يأتي بها أو يحسنها ولذلك وجب على البلاد الاسلامية ان تفتح المدارس الصناعية وتأتي بمهرة الصناع الاوربيين مع الادوات التي اخترعت حديثاً عندهم ليتقن الشرقيون هذه الصنائع ويكفوا بها أنفسهم ان لم يسابقوا بها الاوربيين مثلا كما فعل اخواننا اليابانيون

ان اليابان قطر من الاقطار الشرقية وهو حديث العهد بالمدنية وقد تربى على أيدي الاوربيين فكسب أهله منهم العلم والتجارة والصناعة ومن المدهش ان

المصنوعات اليابانية اليوم تضاهي ان لم نقل تفضل المصنوعات الاوربية وهي رائجة أتمّ الرواج ليس في الشرق فقط بل وفي أوروبا وأميركا أيضاً وذلك لرخص أجرة الصناع اليابانيين

ومعلوم ان بلاد الاسلام رخيصة والصناع فيها فقراء فلو نقلت اليوم الصنائع الاوروبية كما نقلت الى اليابان مع ماهو معروف عن المسلمين من الذكاء الفطري لرأينا الصنائع الاسلامية قد نمت نمواً عظيماوفتحت لها أسواق أوروبا وأميركا قبل أسواق الشرق لان هذه الاصواف والاقطان والحرائر التي تنقل الى أوروبا من الشرق لينسجوها لو نسجت في الشرق نفسه لكانت أرخص بكثير من ان تنسج في الغرب

وهذه الطريقة أسهل وآمن من رأي الذين يرون ان يبقى الشرقيون محافظين على أزيائهم القديمة بعد ان استحسنوا أزياء الاوربيين ومالوا اليها

اما التجارة الاسلامية فبارت وسرّ بوارها تحايل التجار الاوربيين على الكسب ومعاملتهم بالربى بحيث أصبح التاجر القليل المال باستطاعته ان يتاجر بالمال الكثير بمايستدينه من المصارف والتجار لقاء ربح معروف يسمى بالربى

ومعلوم ان الربى حرمه الاسلام تحريماً قطعياً لخير الناس وليجعلهم متعاونين متضامنين فلا يجوز لنا ان نخالف أوامر الله سبحانه ونجيز ماحرمه علينا لمطلق خيرنا

ولقد نشر بعض الكتاب عدة مقالات في الربى في جرائد مصر في هذه السنوات الثلاث ومنهم من احتال على الشرع الشريف بالتجويز ومنهم من اصر على التحريم ونحن كذلك مصرون على التحريم لان أمر الله سبحانه في قرآنه الشريف صحيح صريح لا يقبل التأويل

غير اننا نرى من الواجب علينا ان نستفيد من هذا التحريم كما أراده الله وما اراد لنا غير الخير رحمة بنا وذلك ان تنشأ عدة شركات اسلامية بأموال وافرة ويكون غرض هذه الشركات هو الدخول مع التجار في متاجرهم على سبيل الشركة على ان يكون لها من الارباح قسم يتفق عليه بين الطرفين كجزء من عشرة او جز من عشرين

ولو وجدت عندنا شركات كهذه وانتظمت الانتظام المطلوب وسارت على اسلوب قويم وحكيم لفاز تجارنا على التجار الاوربيين بامتياز كبيروهو:

ان التاجر الذي يستدين بالربى ليتاجر تذهب أرباحه للمرابين لان قد تطول معه مدة التصريف فلايصل الى يوم تسديد دينه الا وتراه يدفع للمرابي كلّ ما كسب او اكثره اما التاجر الذي يجد من يشاركه بماله على الربح لايهمه طالت مدة التصريف او قصرت لان ربحه هو هو وربح الشركة التي مدته بالمال هو هو وهذا فرق عظيم في التجارة

هذا من جهة التاجر أما من جهة ارباب الاموال المسلمين فانهم الان يدفنون أموالهم بخزائنهم او يربطونها بملك لا يأتي بفائدة أكثر من ٤ حتى ٨ في المئة ففي هذه الواسطة يتمكنون من تشغيل اموالهم بما لا تقل أرباحه عن عشرة او عشرين في المئة حسب رواج السوق ونباهة مديري الشركة

واعتقد ان لو توفق المسلمون الى تأليف مثل هذه الشركات الكبرى لامداد التجار الصغار بالدخول معهم في أرباحهم التجارية لكان فوزهم عظيما على التجار الاوربيين ولنمت ثروة الاوربيين نموا عظيما في قليل من السنين وفي الوقت نفسه نوجه انظار كبار المزارعين الى وجوب تحسين

زراعاتهم على الاساليب الحديثة التي توصل اليها العلم الحديث لان الزراعة من أعظم دواعي الاثراء على ماهو معلوم

والقصارى ان لامجد بلامال ولا جاه بلا مال ولا قوة بلامال فلنسع وراء جمع المال بالاساليب والطرق المشروعة واضعين أمام أعيننا الحديث الشريف « اعمل لدنياك كانك تعيش ابدا واعمل لاخراك كانك تموت غداً »

الفصل الخامس والاربعون

كلمة الى الحكام المسلمين

لا يلام المسلمون في الحقيقة ونفس الامر كما يلام ملوكهم وحكامهم في هذا الضعف والجهل والفقر الذي وصلوا اليه

واذا لمنا الملوك والحكام فانما نلوم بأشخاصهم وزراءهم واعوانهم وعمالهم المشاركين لهم في الحكم لانهم لو صدقوا في خدمة المسلمين نهضوا بهم الى حالة المجد في قليل من الزمان كما جرى لامة اليابان

وأول ما نوجهه اليهم من سهام اللوم هو تركهم « الشورى » وقد جاء بها الاسلام منذ الف وثلثماية وستة وعشرين عاماً اي قبل ان يجري عليها احد من الحكام والشورى هي اساس الرقي ومصدر العمران لما يصدر من احتكاك آراء الرجال من قبس الصواب والسداد

على ان الامل أصبح معقوداً بتعميم الشورى في بلاد المسلمين لتنبيه الناس اليها وتعلقهم بها ومعرفتهم قدر هذه الحكمة التي أمر بها الله في كتابه العزيز فاصر رسوله صلى الله عليه وسلم ان يشاور أصحابه عليهم رضوان الله

بالامر مع انه النبي المعصوم المؤيد من الحق سبحانه

ولقد نادى جلالة السلطان عبد الحميد بالشورى منذ اثنين وثلاثين عاماً ثم عاد فألغاها وحكم البلاد في كل هذه الاعوام بالسلطة المطلقة الى هذا العام حيث نودي بالشورى في ملك آل عثمان في يوم ٢٤ يوليو سنة ١٩٠٨ فكان ذلك فاتحة خير المسلمين

ونادى المرحوم مظفر الدين شهنشاه دولة عليت ايران بالشورى قبيل وفاته وأمر بجمع مجلس النواب وكادت الشورى تسود في ملك الاكاسرة العظام لو لم تغتاله المنون

والايرانيون اليوم مع خلفه بفتن وثورات سوف لا تنجلي الا عن الشورى التي جاء بها القرآن وقضى بها الشرع الشريف ومهما حاول محمد علي شاه لايستطيع ان يبقي الناس عبيداً يحكمهم على مايشاء وقد حررهم الله

واما بقية الممالك والامارات الاسلامية فلا تزال بعيدة عن الشورى ولا يزال الاستبداد ضارب اطنابه في ربوعها الى لمحها الله ولا حول ولا قوة الا بالله

وقبل ان ندعو هذه الممالك والامارات الى الشورى وتابي دعوتنا عبثاً نطالب الملوك والحكام أن يمدو أيديهم بعضها الى بعض متصافين متعاضدين لمجد القرآن وخير المسلمين لان أميال اهل الشورى من عقلاء الامم الاسلامية هي غير أميال أولئك الحكام الغاشمين المستبدين

على انا اذا افترضنا ان المسلمين توفقوا الى سيادة الشورى في ممالكهم على ما يقضي به دينهم الحنيف وصاروا الى زمن باتوا فيه يحكمون أنفسهم بأنفسهم حينئذ نعلل أنفسنا بالوصول الى الجامعة الاسلامية التي نحلم بها والى الرقي الذي نطمع فيه من تجديد مجد الاسلام وما ذلك على الله بعزيز

الفصل السادس والاربعون

في الاقتصاد السياسي

وقبل ان نودع القاري الكريم لابدّ لنا من كلمة نذكرها في مبدأ الاقتصاد السياسي الذي أصبح يعرف أهل الغرب علماً قائماً بنفسه

ان هذا الاقتصادالسياسي هو علم بسيط جداً من وضع فلاسفة العرب ويتقدمهم ابن خلدون الذي فرّق بين العمل ورأس المال وجعل لكلٍّ منهما قيمة وأبان ان لكل عمل قيمة ولكل مال قيمة

ونحن نجمل الكلام في هذا الموضوع الكبيرولا نطيل فيه تطويلاً يحار فيه القاري الكريم بل نلخصه بكلمات قليلة حباً بالفائدة فنقول

ان كل ماينتج فائدة بعرف علماء الاقتصاد فهو رأسمال وكل فائدة تصدر عنه فهي ربح وحسب هذا التعريف فالزمان رأسمال والعلم رأسمال والقوة رأسمال والارض رأسمال والجمال رأسمال والمال رأسمال وكل ماينجم عن اكتساب الوقت أواستعمال القوة أو استثمار الارض أو استخدام العلم أو الجمال أوالمال فهو ربح

وجعل علماء الاقتصاد رؤوس المال هذه هي ملك عام للامة جمعاء لاخاصة الافراد بمعنى ان صاحب العلم اذا اشتغل بعلمه ثم انه يفيد نفسه ولكنه أيضاً يفيد البيئة التي هو فيها بمعنى انه ينفق عن سعة على نفسه وأهله فيستفيد مواطنوه من ثروته أومايحصله بعمله خلافاً لما اذا تكاسل فأصبح عالة على مواطنيه

وما يطلق على صاحب العلم يطلق على صاحب القوة وصاحب الارض

وصاحب الجمال وصاحب المال وصاحب الوقت اطلاقاً عاماً بمعنى ان يكون مسئولا كل واحد من هؤلاء امام وطنه ان لم يكن مادياً فأدبياً لو هو تهاون عن الكسب وأضاع ما يمكن ان يستفيده من الربح كثر أو قلّ

وفي هذا الاعتبار يجعل علماء الاقتصاد أهل الوطن الواحد بحكم الشركة ويجعلون كل فرد مسئولا عن عمله امام الرأي العام توصلا للتضامن الذي يعود على ذلك الوطن بالخير ويجعلون الحكومة خادمة لهذه الشركة مروّجة لاعمالها ويطلقون على اموال وأعمال اهل الوطن اسم الثروة العامة

هذا كل ما يراد من الاقتصاد السياسي وله تفرعات لا محلّ لها هنا والذي اردناه من هذا التلخيص هو ان نحاسب انفسنا نحن معاشر المسلمين لنرى هل من وطن للاسلام يصح ان يقال عنه انه متبع مبدأ الاقتصاد السياسي لتحسين الثروة العامة ؟

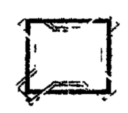
تعال معي ايها القاري الكريم لنذهب الى الاستانة العلية فالاناضول فسوريا فأرمينيا فالعراق فالبلاد العربية فمصر فتونس فمراكش بل هيّ بنا الى الهند فالافغان فايران فجاوه بل سر حيثما شئت في بلاد المسلمين ترَ ان الاوقات هناك ذاهبة سدىً وهي بعرف الاقتصاديين من ذهب بل أثمن من الذهب لانها تأتي بالذهب ترَ ان قوى المسلمين صائمة وكل اولئك الرجال الاقوياء قاعدون في مجالسهم لا يأتون عملا لان ليس لديهم عمل يعملونه ترَ ان اموال المسلمين مخبوءة في خزائنهم لانهم لا يعرفون كيف يتاجرون بها ترَ العلم مفقوداً من بلاد المسلمين ولو تعلموا لاستفادوا منه الاموال الوفيرة وهكذا . .

فاذا تأمل المتأمل الحكيم بهذه الحالة المزعجة عرف كيف فقد المسلمون

ثروتهم العامة وأطلق عليهم بحق اسم « فقراء » فهل لدينا من أهل العزائم من ينهضون بهذه الامة لتستخدم رؤوس اموالها بما ينجم عنه الربح العائد على مجموعها بالثروة العامة ؛ هذا ما نذكر به اخواننا المسلمين

ثم ان الثروة العامة في عرف الاقتصاديين هي مصدر الحياة ومصدر القوة ومصدر الجاه فحيث يكون المال هناك توجد الحضارة لان في المال تشاد المدارس و يتعمم العلم وفي المال توجد المصانع وتروج المتاجر وفي المال تحشد الجنود وتتسلح وتقام لها الحصون وتنشأ الاساطيل والقصارى ان المال بعد الله سبحانه هو كل شيء والامة التي لا تشتغل لانماء ثروتها العامة لاأمل لرقيها وتقدمها في هذا الوجود فلتنكب أمتنا على السعي وراء المال ولكن في سبيل الكسب الحلال لاننا أهل الدين الذي لايجيز الربى والسحت والسرقة والاختلاس وهي المساوي الواجب ان نترفع عنها في متاجرنا ومصانعنا ومعاملاتنا مع غيرنا لتتوجه الينا الثقة العامة كما كانت في أجدادنا وآبائنا رحمهم الله

اولئك آبائي فجئني بمثلهم اذا جمعتنا ياجرير المجامع



الخاتمة

المولد النبوي

ذكرنا ماذكرنا عن غيرة دينية وحمية وطنية دفعنا بها على قدر العجز مطاعن الطاعنين على الاسلام من أعداء الاسلام وذكرنا اخواننا المسلمين بالعمل على سعادة الدارين وذكر عسى تنفع الذكرى المؤمنين وقبل ان اختم هذا الكتاب لابدّ لي من توجيه نظر المسلمين الى بعض البدع الضارة فأقول

قد اعتاد بعض المسلمين اقامة الموالد والاحتفال بها وأشهرها مولد نبينا صلى الله عليه وسلم وهذه الاحتفالات لم تكن في صدر الاسلام بل دخلت على المسلمين فيما بعد ولذلك نستطيع ان نسميها بدعاً

والبدع منها ماهو مكروه وغير جائز ومنها ماهو محمود وجائز فما هو غير جائز ومكروه البدع بالاعتقادات كان يدخل على الاسلام منها مالم ينزل به وحي وتنص عليه سنة لانقطاع الوحي والجائز والمحمود ما كان لامساس له في الاعتقادات الدينية ومفيد المسلمين من الوجهة القومية والحياة الاجتماعية ومن ذلك احتفالهم بمولد النبي الهادي عليه صلوات الله

على ان الاحتفالات التي شرعها الدين هي عيد الفطر وعيد الاضحى اراد سبحانه وتعالى بعيد رمضان ان يعيد المسلمون بعد ان تهجدوا في شهر رمضان بالصلاة والصيام والزكاة شاكرين الله سبحانه وتعالى الذي انزل على نبيهم وحيه في هذا الشهر المبارك هدى للعالمين فاحتفاء المسلمين برمضان واحتفالهم في العيد مجدد لايمانهم مؤيد لوحدتهم بغير جدال

وأراد الله ان يذكر المسلمين بالاضحى بوجوب الاستغفار من خطاياهم

تجديداً لتوبتهم أسوة بأبينا آدم عليه السلام عند ماقدم البيت العتيق حاجاً طائفاً مستغفراً الله عن خطيئته وعندئذ يذكر المسلمون ان الله غفور رحيم

وفي تقديم الاضاحي يقتدي المسلمون بسيدنا ابراهيم عليه السلام الذي ضحى خروفه فدية عن ابنه الذبيح

هذا ماشرعه الدين فصار واجباً دينياً لامحيص عنه الا ان ليس في كتاب الله الاشرف ولا في سنة نبيه صلى الله عليه وسلم مايمنع المسلمين عن اقامة بعض احتفالات تاريخية تعزز كلمتهم وتدعم جامعتهم كاحتفالهم بمولد نبينا صلى الله عليه وسلم وهو حادث خطير من حوادث تاريخهم حيث فيه ذكرى مولد المصطفى الذي انتشلهم من الضلال الى الهدى وجعلهم امة مجيدة وكذلك احتفالهم في بدء السنة الهجرية حيث يذكرون فيه هجرة نبيهم وأصحابه من وطنهم في طاعة الله عزّ وجلّ

على أن المسلمين ظلوا ستة قرون متواليات لايحتفلون بالمولد النبوي وكان أول احتفال لهم من هذا القبيل في بدء القرن السابع للهجرة على عهد الملك المظفر أبو سعيد صاحب (اربل) واسمه «كوكبري» حفيد «بكتكين» الشهير فان هذا الملك الهمام أراد أن يجدد همم المسلمين بالاحتفال بمولد سيد المرسلين ففعل ثم أصبح هذا الاحتفال عادة استحسنها المسلمون وجروا عليها حتى اليوم

وكان مبتدع هذه العادة الحميدة الملك المظفر يصرف على الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ٣٠٠ الف دينار في العام فينحر نحواً من خمسة آلاف رأساً من الغنم وعشرة آلاف دجاجة ومئة الف زبدية من اللبن وثلاثين الف صحن حلوى ولا يبقى في البلد من لايأكل على مائدته وبعد الطعام

كانوا يجلسون لسماع قصة المولد على ما كان يرويها الراوون عن التواريخ

وحدث ان الحافظ بن دحية العالم المغربي اجتاز باربل سائحاً فوجد الملك المظفر يحتفل بالمولد المشار اليه فألف قصة للمولد دعاها «التنوير في مولد البشير النذير» وقرأها على المظفر بنفسه فأعجب بها وأجاز مؤلفها بألف دينار

وقد الف المسلمون فيما بعد ان يقتصر احتفالهم بالمولد النبوي بقراءة القصة الشريفة وتقديم الصلوات والدعوات وتوزيع الهبات والصدقات وهكذا تحول هذا الاحتفال الى شكل ديني لاجناح فيه ولا تثريب

انما بعد ان ساد الجهل على عامة المسلمين أدخلوا على هذه الحفلة مالا يجوز شرعاً بحيث أصبحنا نشاهد في ذلك الاحتفال من ضروب الفجور ما لا نرضاه لديننا الحنيف المنزه عن شوائب الوثنية والتدجيل كالمارأيناسائحاً يجول بين المحتفلين وهو يحسب مايراه قاعدة من قواعد ديننا أو فرضاً مقدساً من فرائض الاسلام والى هذا نستلفت انظار أولي الشان من قادة هذا الدين لعلهم يضربون على ايدي المبتدعين ويرجعون بهذا الاحتفال الى ما كان عليه من اقامة الدعوات والصلوات وأسداء الصدقات

على ان في المسلمين اليوم حركة جديدة حيوية مباركة ان شاء الله وهي انتهاز علماؤهم وأدباؤهم وخطباؤهم فرصة اجتماع الامة بفرح في مثل هذا الاحتفال البهج الذي يذكرهم بمولد نبيهم عليه الصلاة والسلام فيلقون الخطب المفيدة ويبثون الافكار الرشيدة ونعم مايعملون

انما الذي نرجوه من الغيورين على هذا الدين ان يطهروا هذه الحفلة وأمثالها من كل ماينافي روح الاسلام مما اقتبس عن الوثنية لان دِيننا

الفطري يجب ان يتنزه عن أمثال هذه الشوائب التي تجعلنا سخرية وهزءاً في نظر الغرباء عن ديننا ولا يرضى عنها الله ورسوله والصالحون

اما مشروعية هذا الاحتفال فستندة على نصوص صحيحة أولها ماجاء في الصحيحين ن ان النبي صلى الله عليه وسلم عند ماقدم المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فسالهم عن سبب صيامهم فقالوا انا نذكر في هذا اليوم كيف أغرق الله في مثله فرعوناً عند ماكان لاحقاً بجيشه سيدنا موسى عليه السلام ونصوم فيه شكراً لله لى ذلك فقال صلى الله ليه وسلم مامعناه «نحن أحق منهم بالشكر على ذلك اليوم» وامر أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين بصومه

نقول فغرق فرعون لنجاة سيدنا موسى حادث تاريخي ذو شان في حياة ذلك النبي عليه السلام وقد استحسن رسول الله الصيام فيه فكيف لايستحسن احياء ذكرى يوم مولده عليه الصلاة والسلام هدى للعالمين

وثانياً كانت عادة العرب ان يحتفلوا في اليوم السابع من ولادة غلام لهم بقص شعره ويولمون لذلك الولائم ويسمون هذا اليوم « بالعقيقة » وقد ورد ان عبد المطلب عقّ عنه صلى الله عليه وسلم في اليوم السابع من مولده الشريف وروي عن أنس أنه صلى الله عليه وسلم عقّ عن نفسه بعد بعثته مع ان العقيقة لاتعاد عند العرب فالمولد الذي يحتفل به المسلمون هو من هذا القبيل

وثالثاً ان أباوهب عم نبينا الهادي صلى الله عليه وسلم كان على ماهو مشهور أشد الناس وطاة عليه واكثرهم عداء له ومع هذا كله فقد روي ان الله يخفف عنه العذاب في مثل يوم الاثنين لان جاريته ثويبة جاءته يوم مولد النبي

وكان يوم الاثنين وبشرته بمولد غلام لاخيه عبد الله وانها أرضعته فسر منها بهذه البشارة وأعتقها وفي هذا دلالة واضحة على استحسان اظهار البشائر والمسرات يوم مولده صلى الله عليه وسلم والشكر لله الذي أرسله رحمة وهدى للعالمين

هذا ما يفتي به العلماء في جواز اقامة المولد النبوي من الوجهة الدينية اما من الوجهة الادبية فالعقل يدل دلالة واضحة على ان اقامة مثل هذا الاحتفال بين المسلمين وفي ربوعهم واقامة مظاهر الافراح والمسرات فيه والقاء الخطب والقصائد النافعة على المحتفلين مما يدعم الجامعة الاسلامية ويجدد روح التقوى، والتهجد في القلوب

ولعمري اذا كان يحتفل المسلمون بمولد أميرهم أو سلطان ويحسبون ذلك فرضاً واجباً عليهم فالخلق بهم ان يحتفلوا بمولد نبيهم وهاديهم ومنذرهم وبشيرهم على ان لا يشاب احتفالهم بالشوائب التي يجرونها والموبقات التي يرتكبونها مما يخالف الدين صراحة ويعود على الناس بالمضرات الادبية ويفضي الى التهتك المعيب والمحرمات المهلكة

السنة الهجرية

ويسرنا ان نشير هنا الى نهضة جديدة حيوية في الاسلام وهي احتفالهم بفاتحة السنة الاسلامية التي فيها ذكرى هجرة سيد المرسلين عليه صلوات الله

فان المسلمين منذ عهد بعيد يحتفلون في غرة محرم الحرام بفاتحة سنتهم الجديدة احتفالا بسيطاً يقتصر على طهي بعض الاطعمة ولكنهم لا يقطعون عن أعمالهم ولا تقام لهم فيه اجتماعات قومية ليتزاورون فيها لارتباط قلوبهم بروابط المودة والاخاء كما يفعل غيرهم من الامم الاخرى نخبة الا انهم نهضوا

أخيراً الى هذا الواجب وما وراؤه من المنافع وجعلوا يقيمون الاحتفالات والاجتماعات في بدء السنة الهجرية فعددنا ذلك نهضة في المسلمين محمودة ان شاء الله وانا نحضهم على هذا العمل ونستحسنه منهم ونعده بدء عصر جديد لهم

نعم من الواجب على كل مسلم أن يحتفل على قدر استطاعته بفاتحة سنته الهجرية وان تكثر في مثل هذا اليوم اجتماعاتهم القومية وان تتلى فيه مواعظ وعظاتهم وخطب خطبائهم بما تعاد فيه ذكرى بواهر آيات القرآن الشريف وفضائل هذا الدين الحنيف وتفتح فيه أساطير المسلمين وتنشر فيه سير الاسلاف الصالحين لان الناس من سوق الامم ومهذب لها افضل من تذكيرها بتاريخها المجيد هذا هو الواجب المقدس واليه ندعو معاشر المسلمين أجمعين

وبهذه المناسبة نذكر القوم بوجوب اتخاذ التاريخ الهجري قاعدة لكتاباتهم ولا جناح عليهم انهم أضافوا اليه التاريخ الافرنجي المصطلح عليه لان في تداول التاريخ الهجري بين المسلمين ذكرى قومية ودينية

وبهذه المناسبة نذكر للقراء الكرام القاعدة التي كان يجري عليها العرب في تأريخ كتبهم على الفاصلة الهجريه وهي

كان العرب يؤرخون بالنجوم ومنه قول الكتاب نجمت على فلان كذا يؤديه في نجوم . وكل عام حدث فيه أمر مشهور فأرخوا بالختان لانهم كانوا يتهاونون فيه وعظم عندهم أمره

قال النابغة الجعدي

فمن يك سائلاً عني فاني من الشبان أيام الختان

مضت مائة لعام ولدت فيه وعشر بعد ذاك وحجتان

وأرخت قريش بموت هشام بن المغيرة المخزومي لجلالته فيهم وبهانوه شاعرهم .

وأصبح بطن مكة مقشعراً كأن الارض ليس بها هشام

وأرخ بنو اسمعيل بنار ابراهيم عليه السلام الى بناء البيت. ثم أرخوا ببنائه الى تفرق معد فكان كلما خرج قوم أرخوا بخروجهم. ومن بقي بتهامة (مكة) من بني اسمعيل كانوا يؤرخون من خروج سعد ونهد وجهينة بني زيد من تهامة (نهد قبيلة باليمن) . ثم بموت كعب بن لؤي . ثم بعام الفيل وفيه ولد نبينا صلى الله عليه وسلم وعلى سائر الرسل الكرام . واستمروا كذلك الى ان أرخ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بهجرة النبي صلى الله عليه وسلم وكان سبب ذلك أن أبا موسى كتب اليه ان يأتينا من قبل أمير المؤمنين كتب ليس بها تاريخ فلا ندري على أيها نعمل . وروي أيضاً انه قرأ صكا محله شعبان فقال أي الشعبانين . ثم اتفق على التاريخ من المحرم سنة الهجرة كذا

وغلب العرب الليالي على الايام في التاريخ لان الاهلة التي بها سبقت يومه وولدته ولم يلدها ولان الاهلة الليالي دون الايام . ومن النابغة من قصيدة من اعتذارياته يخاطب بها النعمان.

فانك كالليل الذي هو مدركي وان خلت ان المنتأى عنك واسع

ولم يذكرها الله سبحانه وتعالى الاقدم الليالي على الايام قال تعالى في سورة الاعراف (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة) وفي سورة الحاقة (سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما) وقال تعالى (يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل) وفي سورة سبأ (سيروا

فيها ليالي وأياماً آمنين) وقداستعملت الليالي حتى في الاشياءالتي لايشاركها فيها النهار كالصوم وكان القريب للاستعمال النص على الايام دون الليالي في هذه الاشياء لانه لااشتراك بينهما كما في الصوم واعلهم أجازوا ذلك لانهم راعوا ان الليل أول الشهر وأنشد أبو عبيدة.

فصامت ثلاثاً من مخافة ربها ولو مكثت خمساً هناك اصلت

وكانوا اذا رأوا الهلال أول ليلة وأرادوا التاريخ بها كتبوا هكذا (كتب ليلة الجمعه مثلاً غرة كذا أو مستهل كذا أو مهل كذا أو ليلة البراءة)ويكتبون في اليوم الثاني ليلتين مضتا فاذا جاوزوا ذلك كتبوا لثلاث خلون وأربع مضين وهذا الى العشر فاذاجاوزوا العشر كتبوا لاحدى عشرة ليلة خلت أو مضت ووحدوا الفعل نظراً لليلة ويكتبون لخمس عشرة خلت أو للنصف من كذا ولا يكتبون لخمس عشرة بقيت ويكتبون بعد النصف بيوم لاربع عشرة بقيت فاذا كان آخر ليلة كتبوا سلخ كذا

والشهور كلها مذكرة ماعدا جمادي الاولى والآخرة ولا يلفظون بلفظ شهر الا مع ثلاثة أشهر - رمضان وجاء بذلك الكتاب العزيز — شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن . وربيع الاول وربيع الثاني لرفع اللبس لانهم اذا قالوا ربيع ولم يذكروا الشهر فربما ظن الربيع الذي هو الفصل من الفصول الاربعة ولكنه ليس بلازم فلو اسقط لفظ شهر جاز وكان غير مختار ومن المختار قول الراعي

تهري ربيع ماتذوق لبونهم الا حموضاً وخمة وذويلا

ولا يدخلون ال الا في المحرم

وكذلك نحض الدول الاسلامية على المحافظة على التاريخ الهجري نم

انأ كثرهن تستعمله ولكن الضرورة تجعلهن ايضاً ان تستعملن التاريخ الشمسي وهذه الضرورة هي في نقص الشهور القمرية عن الدورة الشمسية على ان هذا يمكن تداركه باستعمال التاريخين معاً كما هو الحال اليوم في الدولة العلية العثمانية

على ان الدولة العثمانية تستعمل التاريخ الشمسي مع السنة الهجرية وهذا لايخلو من تشويش وقد علمنا ان مجلس المبعوثان قد فتح هذه المسئلة وفي نية اكثرهم ادخال السنة الافرنجية لحسابات الحكومة ومخابراتها ونحن لانعترض على ذلك شرطاً ان يحافظ المجلس على التاريخ الهجري ويجعله مقارناً دائماً أبداً للتاريخ الافرنجي حتى لاننسى ذكرى الهجرة النبوية من بلاد المسلمين

حفلات الذكر

هذا ما نذكره عن الحفلات المستحبة كالاحتفال بالمولد النبوي والاحتفال بالسنة الهجرية ولكن هنالك حفلات أخرى ليس فقط تنافي آداب الدين بل تجعلنا سخرية وهزءاً لدى العالمين من ذلك اقامة حفلات «الذكر» على الشكل المعهود المعيب وقد أزاد بعضهم ان جعلوا يمثلون هذه الادوار المزعجة المنافية لروح الاسلام امام الفرنجة وهم يضحكون ويستهزئون فالى متى، وعلماؤنا يسكتون عن هذه الفضائح؟؟ وحتى متى لايضعون حداً لهذه السخافات التي ما أنزل الله بها من سلطان؟؟

اننا والله لنخجل كلما سمعنا بحفلة تقام في بيوت الافرنج أو في حضورهم حيث يظنون وهم يجهلون حقائق ديننا القيم ان هذا من موضوعات قرآننا الحكيم أو من سنة الرسول العظيم وما هو في الحقيقة الا بدعة ونكبة مستنكرة

بوثنا في نظر أولئك الاجانب فضلا عن انها تغضب نبينا في قبره وتغضب الله عزّ وجلّ فانظر الى مثل هولاء بثيابهم الخضراء وهم كالسكارى وما سكروا الا من الجهل يعرضون اسم الله عزّ وجلّ الى الهوان وهم يجهلون تنزه الله ان يرضى عما يفعلون

ومن لي بافهام مثل هولاء ان ذكر الله لايجوز الا بالاحترام والاجلال وان العبادة لاتجوز الا بخشوع واخبات من لي بافهام مثل هولاء بفظاعة مايعملون وشرمايصنعون وكيف نستطيع ان ندافع عن حقائق ديننا الحنيف امام هؤلاء الفرنجة الذين يأخذون علينابالظواهر ويحسبون اننا نعمل العمل بروح الدين وهم يرون منا مايرون في معاشر الوثنيين ؟؟

وفضلاً عن ان الذكر على هذاالشكل المعيب لايجيزه الدين ولا يرضاه سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم فضلاً عن هذا كله فان اقامة حفلة الذكر بحضور الافرنج الغرباء عن ديننا مما ترتجف له أعصاب الاسلام فمن من المسلمين لايرتجف جزعاً ويحرق الارم غيظاً على هذه الفئة الضالة التي ترضى ان تمثل عملها هذا الديني امام الافرنج نساء ورجالا بأجرة معروفة كما يمثل الممثلون على مراسحهم الروايات الغرامية اما من المعرة على الاسلام ان يحمل وزر مثل هؤلاء الاوغاد ؟ فالى متى أيها العلماء الاعلام تسكتون ؟؟ والى متى عن شرف الدين وسلامته لاتدافعون ؟؟

- ﴿ الموالد وزيارة الاضرحة ﴾ -

ومثل هذا أو ماهو أفظع منه مانراه في الموالد الشتى للاولياء أو من يدعونهم أولياء وزيارات أضرحتهم حيث نجري هنالك من الفضائح والمعائب مانستحي من ذكره ولكنه لايخفى على حضرات العلماء الاعلام فلماذا لاينهضون

لتطهير هذا الدين الحنيف من مثل هذه الموبقات والمساوي ؟؟

ان زيارة أضرحة الاولياء مما لايجوز شرعاً والحج لغير بيت الله وزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم نوع من انواع العبادات الوثنية التي ينهي عنها الدين ولم تعهد بأ لافنا الصالحين ولو كانت زيارة قبور الاولياء جائزة لما أضاع المسلمون معالم كثيرين من أصحاب رسول الله وأنصاره الذين خدموا الاسلام أشرف الخدم وأقدسها

فاذا كانت زيارة الاضرحة والحج اليها غير جائزة شرعاً بل هي مكروهة فكيف بنا ونرى المسلمين يحجون اليها ويأتون بجوارها من الموبقات مانستحي من ذكره ومن الفضائح مالا نريد نشره

نحن لاننكر فائدة اقامة الموالد في البلاد للتجارة حيث يجتمع الناس في صعيد واحد ويتبادلون المنافع ولكن نريد ان تتطهر هذه الموالد من المحرمات أولاً وان تزال عنها الصبغة الدينية ثانياً بحيث تصبح مجتمعات قومية للبيع والشراء كما هو حال المعارض العمومية في اوروبا

وحبذا لو اغتنم الخطباء والوعاظ فرص هذه الاجتماعات فقاموا بينهم ناصحين ومرشدين انهم لو فعلوا ذلك لخدموا الامة أشرف خدمة فهل هم فاعلون ؟

﴿ الدجالون ﴾

وهنالك طائفة من جهلاء وأغبياء المسلمين يطلق عليها اسم «درويش» وهؤلاء يمثلون من ضروب الخزعبلات والمنكرات باسم الدين مالا يأتي به الوثنيون عباد الانصاب والاصنام

يأتيك الدرويش باسم الدين فيبلع النار ويضرب نفسه بالسلاح في

آخر مايعمل ولا يكتفي بتمثيل هذه المضحكات المبكيات امام معاشر المسلمين للتسطي على عقولهم وجيوبهم حتى يشفعها بوبقة أسوأ فيمثل دوره هذا المعيب امام الاجانب مأجوراً وهم مستهزؤن

ثمّ اذا انصرف هؤلاء الى بلادهم نشروا الفصول الضافية عن مثل هؤلاء وقالوا ان الاسلام ينطوي على مثل هذه الاضاحيك

نعم ان وجود هؤلاء الدجالين ضربة من شرّ الضربات على الاسلام لانهم يعرضون ديننا الحنيف الى تهكم المتهكمين وسخرية الساخرين والمصاب في هؤلاء الدجالين عميم لانهم أصبحوا حجة على الاسلام لا يدفعها الا علماؤنا ليس بالاقتصار على اعلان كراهة مايعملون ومنافاته لهذا الدين القيم فقط بل بعمل كل مافي استطاعتهم للضرب على أيديهم وتطهير هذا الدين من ارجاسهم .

ان علماءنا اذا فعلوا مثل ذلك خدموا الاسلام أشرف وأقدس خدمة فلينهضوا الى محاربة هذه البدع المكروهة ان كانوا حقيقة متقين ولله في السر والجهر عابدين

ملوكنا وامراؤنا

ولا يسعنا في هذا المقام السكوت عن ملوكنا المتألهين الذين أقاموا من حولهم الحجاب وامتنعوا داخل الابواب وأصموا أسماعهم عن شكوى المظلومين ونصائح الناصحين فهل هذا يأمرهم به الدين وهل ورد فيه سنة لسيد المرسلين أو أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين أما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر في شؤون الناس بنفسه ولا يرضى ان يحول حائل بينه وبين واحد من المؤمنين : اما كان الخلفاء الراشدون يتجولون بنفوسهم بين

الرعايا وكان عمالهم كذلك ينحون نحوهم في التعرض للناس والنظر في مصالحهم فلماذا لا ينحو هذا النحو ملوكنا وأمراؤنا وعمالنا وحكامنا ؛ ؟ ولماذا لا يقتدون بسنة النبي الهادي صلى الله عليه وسلم وأسلافنا الصالحين ؟ ؟ هذا ما نوجه اليه انظار ملوكنا وكل ذي أمرٍ من أمرائنا وحكامنا عسى يصبحون بالاسلاف مقتدين

نعم ان من ينظر الى التاريخ الاسلامي بتدقيق يرَ ان خلفاء المسلمين وأمراءهم كانوا كرؤساء جمهوريات أوربا وأميريكا اليوم من حيث الشورى ومساواتهم مع رعاياهم وفوق ذلك كانوا يفوقونهم في بساطة المعيشة والاختلاط بالناس ونرى في هؤلاء الحكام اليوم من التساهل في معاملة رعاياهم والتحبب اليهم ما يخال لنا فيه انهم قد اقتدوا بخلفائنا السالفين فحبذا لو عدنا نحن لاتباع تلك السنة المحمودة انا لو فعلنا ذلك لاستأنفنا مجدنا السابق وسؤددنا القديم

روي عن الامام عمر رضي الله عنه انه كان نائماً مرة في الفضاء فجاءه رسول الروم وبعد ان سأل عنه الناس دلوه عليه فوجده نائماً في البرية في ظل حائط وتحت رأسه حجر فقال له عدلت يا عمر فامنت فنمت واما ملكنا هرقل فانه دائماً أبداً محاط بالجنود والاعوان لانه ظلم فخاف فهلا ينطبق هذا على ملوكنا الذين لا يأمنون على نفوسهم اليوم من الاغتيال ؛ ؟

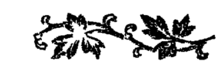
يصور الاروبيون اليوم ملوكنا على سدة عالية ومن حولهم شعوبهم المسلمون ساجدين عابدين فيظن هؤلاء الاوربيون اننا نحترم ملوكنا الى حدّ العبادة مع انهم لو عرفوا اننا أهل دين يجعل امراءنا خداماً لنا الى درجة يبتهل فيها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى الله سبحانه بقوله « اللهمّ حببني الى الناس » ويقف مثال الامام بين رعيته فيقول « أيها

ناس من رأى فيّ اعوجاجاً فليقومه » فيقف في وجهه صعلوك من العرب يقول « والله ياعمر لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا »

ثم ان الاوربيين لو عرفوا في ديننا وتاريخنا مثل هذا لعرفوا قدر هذا الدين الحنيف وملائمته للمدنية وان الاوربيين عند ما تكمل مدنيتهم بعد مئات من السنين يصبحون كحالة أسلافنا الصالحين ويرجعون لاحكام ديننا المبين

فاذا كان هذا حالنا وهذا تاريخنا فعلى م لا نتأثر سيرة اولئك الصالحين ننحو منحاهم في هذا الصراط السوي المستقيم ؛ هذا ماتتساءل عنه ونذكر المسلمين فيه وذكر عسى تنفع الذكرى للمؤمنين والصلاة والسلام على سيد المرسلين

انتهى وكان الفراغ من تسويده بقلم مؤلفه في مستهل شهر ربيع أول سنة ١٣٢٧ والحمد لله أولاً وآخراً



ملاحظات

حدث اننا سلمنا الجزء الاول من هذا الكتاب للمطبعة وسرنا للمصيف في الاستانة منيطين تصليح « بروفاته » بمصلح المطبعة وكذلك عند طبع هذا الجزء حدث لنا ان تغيبنا عن القاهرة فنجم عن هذا التغيب سقوط بعض جمل أو بعض كلمات فضلا عن الاغلاط المطبعية البديهية فأحببنا ان نفصل ذلك في هذه الملاحظات كما ترى

الجزء الاول

جاء في الصحيفة ٨ آخر سطر ذكر الحديث « والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » فألقي لجانب البنيان كلمة « المرصوص » خطأ

وجاء في الصحيفة ٢٢ سطر ٢٠ جملة « وفي هذه المدة وضع لهم الشرائع وسن لهم السنن » والضمير عائد لسيدنا موسى عليه السلام وقد سقطت بعدها هذه الجملة « بما أوحي اليه من العلى »

وجاء في صفحة ٣٩ السطر الاول مانصه « هذا في الاصل يوم وضع الانبياء عليهم السلام قواعد الدين » وسقطت بعدها هذه الجملة « بقوة الوحي الالهي »

وجاء في صفحة ٧٢ سطر ٦ ذكر آية « كم من فئة قليلة الخ » فغلط مصحح المطبعة بوضعه كلمة « رب » بدلا من كلمة « كم من »

وجاء في صفحة ٨١ سطر ١٠ ذكر آية « انما المؤمنون اخوة » فغلط المصحح المطبعي باثباتها « ان المؤمنين اخوة »

وجاء في الصفحة نفسها سطر ١٦ ذكر الحديث «ان المؤمن للمؤمن» الخ فاضيف اليها كلمة « المرصوص » خطأ

وجاء في صفحة ٨٤ سطر ٢ مانصه «كان المسلمون يعتقدون ان النبي صلى الله عليه وسلم سيظلّ خالداً لايموت وهذا الاعتقاد كان مسبباً عن الوهم المحض » وسقطت بعد ذلك هذه الجملة « المسبب عن الدهشة التي تولتهم عند ماعلموا بوفاته صلى الله عليه وسلم لان الخ »

وجاء في صفحة ٨٥ سطر ٧ مانصه « واعتبر أصحاب رسول الله مركز الخلافة دينياً وسياسياً وان على الخليفة ان يهتم بالمسلمين في معايشهم ومعادهم ويسعى ليكونوا سعداء في الدارين » وسقطت بعد ذلك هذه الجملة « وكان اعتبارهم هذا مبنياً على ماتلقوه من الكتاب المنزل الذي ضمّ بين دفتيه أوامر العبادات وأوامر المعاملات »

وجاء في الصفحة نفسها سطر ١٧ مانصه « وتحولت الخلافة من بعده من صفتها الدينية» فسقطت منها كلمة « والسياسية» ثم جاء بعد ذلك « الى صفة سياسية محضاً لولا ان المتربع على دست الخلافة يلقب بالخليفة» وسقطت بعد ذلك هذه الجملة « ويعنى بالشؤون الدينية أيضاً »

وجاء في الصفحة ٨٦ سطر ٩ عن سيدنا عمر رضي الله عنه« انه لم يكن راضياً عما يعمله (معاوية) وليس الامام عمر ممن تخفى عليه خافية مما كان يعمله معاوية لمستقبله » وسقطت بعدذلك هذه الجملة « وفوق ذلك فانه كان يعرف لمعاوية ذكاءه ودهاءه ويقدر قدر حزمه وعزيمته الشماء على تذليل المصاعب »

وينتهي الكلام في صفحة ٨٨ سطر ٦ مانصه « وهذا الانصاف »

وسقطت بعد ذلك هذه الجملة « هـذا مالخصناه عن بعض تواريخ العرب
ونرويه بتحفظ »

وجاء في الصفحة المشار اليها سطر ١٤ عن العباس ومطالبته بالخلافة
فسقطت بعد كلمة « لنفسه » هذه الجملة « على رواية بعضهم »

وجاء في صفحة ٩٣ سطر ٤ ذكر آية (كم من فئة قليلة) الخ فابدلت
كلمة (كم من) بكلمة (ربَّ)

وسقطت في صفحة ٩٤ سطر ١٧ بعد جملة (هو الزعامة الكبرى
للمسلمين) هذه الجملة (ونروي هذا أيضاً بتحفظ شديد لعدم الاجماع عليه)

وجاء في صفحة ١٠٩ سطر ٧ مانصه (على المبدأ الذي وضعه رسول
الله صلى الله عليه وسلم) وسقطت بعد ذلك هذه الجملة (على ماأوحاه اليه
جبريل من لدن الله عزَّ وجلَّ)

وجاء في صفحة ١٤٤ سطر ١١ جملة (الوارثين الشرعيين لها دون
سواهم) وسقطت بعدها هذه الجملة (على أن الحقيقة هي ان الانبياء لايورثون
بدليل قوله صلى الله عليه وسلم « نحن معاشر الانبياء لانورث » وعليه فلا
محل لهذا الخلاف)

وجاء في صفحة ١٥٤ سطر ٦ ذكر آية (وان الله لايغير ما بقوم) الخ
فاثبتت خطأ (لايغير الله) الخ

وعدا ذلك ففي الجزء بعض أغلاط مطبعية لاتخفى على اللبيب



الجزء الثانى

جاء في صفحة ٢١ سطر ٩ جملة (أصبح مضطراً الى ارسال نبي) خطأ وصوابها (فاصبح من مقتضى الحكمة ان يرسل نبياً)

وجاء في صفحة ٢٥ سطر ١٨ جملة (وجعل يلعنه على المنابر) وسقطت بعدها هذه الجملة (على رواية بعضهم)

وجاء في صفحة ٤١ جملة (ابلاغ الرسالة) وسقطت بعدها جملة (واقامة حدودها)

وجاء في صفحة ٤٨ سطر ١٩ جملة (اما ماعدا التوحيد) وقد سقطت بعدها جملة (وما يجري مجراه من تنزيه الله وتقديسه)

وجاء في صفحة ٤٩ سطر ٢١ جملة(والمراد به) خطأوصوابها (ومن أهم مزاياه)

وجاء في صفحة ٥٣ سطر ٤ (وانها ليست دينية) وسقطت بعدها كلمة فقط وجاء في الصفحةنفسها سطر ٥ (سياسية محضاً) خطأوالصواب (سياسية أيضاً)

وجاء في الصفحة نفسها سطر ١٤ هذه الجملة (وغاية ما اشترطوا عليه) وسقط منها هذه الجملة (من هذا القبيل)

وجاء في صفحة ٥٩ سطر ٢ ذكر آية (كم من فئة الخ) فأثبت خطأً (ربّ فئة)

وجاء في صفحة ٦٠ سطر ٥ جملة « حيث قال الله سبحانه » خطأً والصواب « وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم »

وجاء في صفحة ١٠٤ سطر ٢١ ذكر آية (فمن اعتدى عليكم الخ) خطأ حيث أثبتت هكذا (ومن اعتدى عليكم)

وجاء في صفحة ١١٠ سطر ١٧ جملة (أوعن تغالي في التقوى وسقطت بعدها جملة (بغير معرفة)

وجاء في صفحة ١١٥ سطر ١٧ جملة (الشعوب الغير مسلمة) خطأ والصواب (الغير ارثوذكسية)

وجاء في صفحة ١٣٣ سطر ١٧ ذكر آية (انما المؤمنون اخوة) فأثبتت خطأ هكذا (ان المومنين اخوة)

وجاء في الصفحة نفسها سطر ٢١ ذكر آية (ان الله لا يغير مابقوم) فأثبتت خطأ هكذا (لا يغير الله مابقوم)

وجاء في صفحة ١٣٤ سطر ٩ نص الحديث الشريف خطأ وصوابه (احرث لدنياك كانك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كانك تموت غداً)

وجاء في الصفحة نفسها سطر ١٢ نص الاية الشريفة خطا والصواب (ان ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى)

وجاء في الصفحة نفسها سطر ١٣ جملة (وكلهم مستظهرون الخ) وصوابها (وما كلهم مستظهرون الخ)

وجاء في صفحة ١٣٧ سطر ٣ (أبن مالك) وصوابها (مالك)

وجاء في صفحة ١٤١ سطر ١٠ جملة (جاء في القرآن الشريف أكثر من مرة) فسقطت منها بعض كلمات وصوابها (جاء في القرآن الشريف مرة وفي أصول الدين أكثر من مرة)

وجاء في صفحة ١٤٢ سطر ١٠ جملة «في التعليم الالزامي» وصوابها

« في منافع العلم »
وجاء في صفحة ١٤٦ سطر ١٦ ذكر آية «واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل» فأثبتت خطأً

وجاء في صفحه ١٦٦ سطر ٥ ذكر الحديث الشريف خطا وصوابه «احرث لدنياك كانك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كانك تموت غداً»

وعدا ذلك ففي الجزء بعض أغلاط مطبعيه لاتخفى على القاري اللبيب

تقاريظ

ولقد اطلع حضرة الاستاذ العلامة والحبر البحر الفهامة قدوة العلماء الاعلام ومن بفضله تزدان المدارك والافهام مولانا صاحب السماحة شيخ الاسلام الشيخ سليم البشري شيخ الازهر الشريف حفظه الله فاستحسن هذه الخدمة الخالصة لوجهه تعالى واتحفنا بهذا التقريظ المعرب عن فضله وانّ فضله لاشهر من ان يتناوله قلم الفصيح قال :

بسم الله الرحمن الرحيم هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً

نحمده على ماشرع وهدى ونصلي ونسلم على رسوله الذي بلغ ودعا وعلى آله وأصحابه الذين اعتصموا بحبال الهداية والتقى وقطعوا أسباب الغواية والهوى فكانت لهم الدرجات العلى في الآخرة والاولى

وبعد فقد أطلعت على هذا السفر الجليل (خواطر في الاسلام) الذي دبجته يراعة الالمعي الاديب صاحب السعادة المفضال النبيل عطا حسني بك فاذا هو قد أودعه من بدائع الآثار وروائع الآراء والافكار مالم يبق وراءه

مثابة لمفاخر ولا مطالعا لناظر

المسلمون اليوم أحوج الى ما يأخذهم بالعبرة بما كانوا قبل عليه وما انتهت بهم احداث الزمان اليه أحوج الى مايبصرهم بآثار الذين خلوا من قبلهم استمسكوا بعرى دينهم فعلا شأنهم واستمكن سلطانهم ورسخت في أطراف الارض أقدامهم وخفقت على هامة السماك أعلامهم واتسق بهم من أسباب العزة والحول والمنفعة والطول مالم يبق منه الا ظل ممدود على متون الاوراق تنكره الايدي وتصيبه الاحداق أصبح أبناؤهم وقد ذهب ريحهم وأقوت صروحهم وتوطأت أكنافهم لكل لامز ولانت قناتهم لكل غامز وما تداخلهم الضعف ولا سكن اليهم الوهن الا يوم أصبحوا والاخلاق وفاق والاديان رقاق

لعل هذه التبصرة تنفخ فيهم روح الجد والعمل لما فيه سعادتهم في أولاهم وآخرتهم فان الذكرى تنفع المؤمنين

رمتهم المرامي حتى جهلوا حقيقة دينهم فزعموا ان هذا الدين لايأتلف معه علم ولا تساكنه حياة صالحة فما كان أحوجهم لذلك الى مايدحض هذه الشبهة اللاصقة بهم بايراد ماتقدم من آثار سلفهم يوم عضوا على دينهم بالنواجذ وما صاروا هم اليه يوم فرطوا وتهاونوا ان كتاب (خواطر في الاسلام) قد وضع ليملأ هذا الفراغ ويسد تلك الثغرة وقد حوى جملة صالحة من الاراء والابحاث التي تطوف حول تلك الاغراض النبيله فحق علينا ان نحمد واضعه المفضال وندعو الله تعالى ان يكثر من أمثاله العاملين والله لايضيع أجر المحسنين

الفقير اليه تعالى

سليم البشري

مصر في ١٧ شهر ربيع اول سنة ٣٢٧

واطلع على هذا الكتاب أيضاً حضرة الاستاذ الاشهر والعلامة الاكبر مولانا صاحب السماحة شيخ الاسلام الشيخ حسونه النواوي شيخ الازهر الشريف سابقاً فسرّ من خدمتنا وبادرنا بهذا التقريظ قال :

الحمد لله العليم القدير . والصلاة والسلام على البشير النذير وعلى آله وصحبه والتابعين ورضي الله عن الخلفاء الراشدين والائمة المجتهدين ومن يتبعهم باحسان الى يوم الدين

أما بعد فقد أطلعت على الكتاب المسمى الخواطر في الاسلام لمؤلفه حضرة صاحب السعادة عطا حسني بك رفيع المقام فوجدت ماذكر فيه مما يتعلق بالديانة الاسلامية موافقاً بذل فيه مؤلفه كمال العناية وفق الله مؤلفه للعمل بما فيه السعاده ورزقه من فضله الحسنى وزياده والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

الفقير اليه تعالى

حسونه النووي

في ١٧ ربيع الاول سنة ١٣٢٧

فهرست الكتاب

